الحزن طفل نائم

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٧٩٠٢

بطاقة فهرسة

بركة، محمد

الحزن طفل نائم: قصص/ محمد بركة ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

١٥٢ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٨-٢٦٠-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

الحزن طفل نائم

قصص

محمد بركة

ها هو فجر أورلاندو يبزغ من جديد

يوم أحد آخر

إذا كانت هذه هي الجنة

فإنني لا أخشى الجحيم

"أغنية أمريكية"

القسم الأول

مملكة

هذه مملكة الدانتيل الأبيض والنهود الجريئة. أدخلها كل صباح أميرا متوجا بأمر الوزارة. تلمحني على البعد فتيات الأمن الواقفات على بوابة المدرسة بالكاب الأحمر.

- تفضل يا أستاذ!

واحدة ترحب والثانية تجذب التراس الحديدي.

- حضرتك مُدرس الإنجلش الجديد؟

ضحكات مبللة بالندى وعيون واسعة، ماكرة أخلفها ورائي. أشيل طاجن ستى وأنا أخطو عبر كوكبة القمصان البيضاء تشف عن لون السوتيان. أبوس القدم وأبدى الندم حتى يتكرمن ويفسحن ، بالكاد ، نصف الطرقة كي أمر. أعرف أن هذا منتهى الكرم. ولا أستطيع أن أطالب بأكثر من ذلك وأنا أعبر طرقة مملوكية، طويلة، عامرة بالتنهدات...

طارق

أذكر أنه كان يوم الاحتفال بمولد النبي، أي يوم "الحلوى" و "دكر البط الشينى" والبهجة الموسمية التي تترقبها عزبة نائية لم يكن بطل الحرب والسلام يعرف عنها شيئا. كان الحر كالهم الثقيل والترعة تجرى بماء صافٍ، وحين تحلقوا حول الطبلية، لاحظوا غياب "طارق".

ودون أن أُثقل عليكم – وعلىَّ – بالتفاصيل، طارق كان نائما على بطنه، والتيار الناعم يجرفه في هدوء حتى اعترضه أخيرا فرع كافور، ودفعته التيارات الصغرى برفق نحو الشاطئ وتكاثرت عيدان الحطب وأوراق الصفصاف الجافة وتجمع الزبد حول جثة أخي التي تبدو الآن منتفخة قليلا...

أم طارق

حين غرق أخرى فى الترعة، قضم الحزن قطعة من قلب أمي التي كانت آنذاك وردة جميلة تتفتح. ونخر السوس أعصاب أبى حين وصلته الرسالة المشئومة وهو في الغربة يُعمر بلاد "روح يا مصري... تعال يا مصري".

أمي كفت عن ارتداء الملون، ولم تعد تقف أمام المرآة. وأبى سخط على صديق عمره الذي تلاعب بأعصابه في المقدمة الطويلة المليئة بعبارات من نوع "نحسبك صبورا" و "نثق في إيمانك بالله" وتمنى أن لو كان قد ألقى إليه بالخبر في هدوء وبساطة.

أمي قالت "لم يعد لنا قعاد فى هذه البلد" وأبى عاد فى نفس الأسبوع وقال "حاضر". وانتقلنا نحن الثلاثة إلى مدينة صغيرة يزحف فيها النيل على بطنه، وتجر عرباتها الكارو أحصنة عجوز، ويحب حريمها الجارة الجديدة "أم طارق" وينادين ابنها الوحيد حسب هذا الاسم دون أن يعرفن أن اسمي "محمد" وأن طارق هو اسم أخي الصغير الذي رأيت جثته طافية وسط العيدان وأوراق الشجر...

الأرشيف

توتة توتة.. فرغت الحدوتة.. و"البنك" الذي نعمت حوافه من كثرة استناد أكواعهم عليهم،، ورجرجة الزيت المدعم وهو ينزلق من قُمع صفيح إلى جركن بلاستيك سعة ٥ لترات، والشمس الضاحكة المنقوشة برداءة على صابون الغسيل، وفتلة الدوبارة التي فشلت في تكميم أفواه كراتين شاي الحكومة الرخيص، والطرف المدبب للمجرفة وهى تشق تلال سكر غير مكرر، والقراطيس المصنوعة من ورق اللحمة، وأكياس الزهرة المثبتة بمسمار على الباب، والعفاريت الصغار وهم يشيرون لأصابع الحلوى الملونة (حتة حلاوة يا عم) فيشخط فيهم صاحب محل التموين (امشى اتحل وبرك منك له).. والحمارة الملول.. والخُرج المفتوح.. والنهد الأبيض المحندق لبنت صاحب المحل وهى تناولني بضاعة.. وعتمة بير السلم التي احتفظت بلهاث أنفاسنا في أرشيف الزمن اللعين المراوغ.. وأنا.. وأنا...

أوبريت

ليست رغبة مجنونة هذا الذي يتملكني. إنها شهوة الشهوات، أن أخرج حالا بملابسي الداخلية، لأمر ما يحبك المطر وأنت بملابسك الداخلية. أعتذر لكرات الثلج المتساقطة نيابة عن عيال العزبة. أقول معلهش.

لدستة أسباب خارجة عن إرادتنا لن نستقبلكن اليوم بأنشودة:

على يا بو مخ.. خلىَّ الدنيا ترخ.

وكذا لن يتاح لنا تقديم أوبريت:

رخى يا دنيا رخى... على قرعة بنت أختي.

بارضو..!

الدنيا مشاغل وأنتن يا كرات الثلج الأنيقات تُقدرن الموقف أكيد. ثم يهيئ لي فجأة أنني قد ظفرت بالعذر الأكيد، فأصنع من كفى بوقا وأضغط بقدمي في الوحل وأنا أزعق: إذا كانت ألعاب الكمبيوتر تلحس عقلنا نحن الكبار!

هكذا كالحلم

من خلف شيش النافذة رأيتها تندفع فجأة، العربة الكارو يقودها فلاح طيب يلهب مؤخرة الحمار بعصا قصيرة غليظة. كان مرتديا أفرول الجيش القديم. وكان قد شق شيكارة بلاستيك لبيع "كيماوى" المحصول لم تأخذ الجمعية الزراعية ثمنها من لحمه الحي وفردها معطفا يقى الرأس والظهر من ضربات المطر، ثم مرق هكذا كالحلم. ولولا صيحته التي مازالت ترن فى أذني "حا" ولولا أثر عجلات العربة التي دهست الغشاء الثلجي المتكوم على حافة الطريق، لظننتني بالفعل أحلم.

رأيت المطر يهدأ. كان ذلك شبه مؤكد حين نظرت إلى سطح الترعة. ومن فوق السطوح، غدت المزاريب أقل انفعالا وأكثر رزانة. ولم تعد المزاريب تقذف سيولا، بل سرسوبا هادئا، طويل البال.

انفرج تكتل السحب الداكنة قليلا، وأطلت السماء على الأرض بعشرات العيون الزرقاء. وتسللت أشعة الشمس مُبللة وهى تمسح أوراق الكافور المغسولة بالمطر، وظلت واجهات البيوت التي لم يتم طلاءها ترشح ببطء.

رأيته أول من يهم بمغادرة جحره. كلب صعلوك تمطى وهز ذيله ثم مضى لحال سبيله. تلاه صاحب المقهى. حمل مقطف النشارة الذي وصىَّ عليه الصنايعية فى الورشة المجاورة،، وبدأ يرش. يبغى تأمين ممر آمن وسط الوحل يصعد بالمشاه إلى سلم المقهى. ولا تدب الرجل فى الملاية اللف مطرح ما تحب، بل حيث مدق صغير بزغ تلقائيا على حرف الطريق.

ثم رأيته لا يعبأ بـ "يالله حسن الختام": جدي الخارج من البيت يحمل "فأسًا صغيرة تناسب نحول ساقية بعد أن نكَّسه الرحمن عيلا لا قبل له بثقل الفأس الكبيرة. فرش عود قش وجلس مستندا بظهره إلى الجدار في موضع نجا من غارة المطر. أخرج من جيب الصديرى علبة البفرة، ثم سعل بقوة مع النفس الأول. رأيته يرقب مياه البحيرة الصغيرة التي خلَّفها المطر وهى تذهب في المجرى العميق الذي حفره أمس باتجاه الترعة. وإذا مرت عربة نقل وداست بعجلاتها العمياء المجرى فانسد، ضرب كفا بكف، وغمغم في هدوء...

نهدان يهتزان خفيفا

مرة أخرى، أفتح النافذة قليلا فألمحها عند آخر سلالم الترعة منحنية على رصة "المواعين". تلم طرف هدومها بين ركبتيها وتدعك آنية الطعام بالسلك والصابون. تدعك.. تدعك.. وحين يصبح الألم فى ظهرها غير محتمل، تفرد الجسد العفي للحظات، وتمسح بظهر كفها العرق من على جبينها ثم تعاود التنظيف بنفس الهمة والإصرار.

مرة أخرى، أخرج فأشعر بحرقان خفيف فى الجفن. كنا فى عز القيالة. والتراب ينتظر واحدا ابن حرام يمشى حافيا على الطريق ليشوى بطن قدميه من شدة الحرارة. مضيت فى هدوء نحو السلالم. دليت الدلو حتى امتلأ عن آخره. وكان الشبشب الصيني قد ابتل. وكنت أخشى أن أتزحلق. وكان الدلو ثقيلا نوعا ما، وكنت أخشى أن تنزلق المياه منه، فتأخذ بالها من أنه غير ثابت بيدي.

أفرغت الدلو في الحفرة المحيطة بجذع أول نخلة، فشربت الأرض العطشانة على الفور. رفعت بصرى إلى النخلات الباقيات بامتداد الشاطئ

أمام البيت. كانت أراضيها بالمثل "شراقى". ووجدتني أحسبها، ٤ دلاء هنا، وخمسة لكل نخلة هناك، إذن مطلوب ٢٩ دلوًا. وشعرت بالعرق سريعا ينبت تحت إبطي وبالحرقان يزداد فى عينى. وقلت لنفسى كان يبقى جميل لو كان الواحد يعرف يشخر، أو على الأقل يعزف لحن الكلام القبيح بشكل مقنع. وإلا فما معنى أن يكون لديك الخرطوم الطويل وحنفية بحوض واطئ فى الزريبة، ومع ذلك تكون مضطرا لاستعمال الدلو، لا لشئ سوى أن حكمة الآباء تؤكد أن مياه الشرب النقية لا تفيد الزرع مثل مياه الترعة.

عدت إلى السلالم. وضعت الدلو بالمقلوب وجلست قبالتها على قاعدته الناعمة. كان هرم الأطباق التي نظفتها وفى انتظار لمسة المياه الأخيرة بدأ يعلو. وكانت مستمرة فى تنظيف ما تبقى بنفس التركيز دون أن ترفع عينيها الخضراوين إلىَّ. وكان نهداها الممتلئان في لون الحليب يرتجان خفيفا. وقلت لنفسي جميل إن زراير فتحة الصدر الثلاثة مقطوعة. وكان يبقى أجمل لو كانت قد استغنت عن دبوس قليل الحيلة تشبكه كبديل فلا يستر شيئا...

أحمد حبيبي

تمطر وابلا أو رذاذا يرتعش قلبي الخالي. نتكدس، أولاد وبنات، على شريط الطرقة محاذرين الانزلاق في الحوض الذي فجره المطر عيونا ومستنقعات بلون الطين.

هنا فاجأني اخضرار شورابنا، وهنا تلقيت أسرار الرجولة الأولى، وهنا أضنت أمعاءنا سندوتشات خالتي عزيزة الفراَّشة.

السندوتش بجنيه ينبه المعدة ثم يتركها هائجة، مستثارة تطلب المزيد. والحل أن يلف كل منا على العيال أصحابه وعزوته:

أحمد... حبيبي.. أعطني لقمة مما أعطاك الله!

وأنا أحمد حبيبه لا أتعب نفسي في أية محاولة للتهرب. إن هي إلا بصقة واحدة على السندوتش في يدي فإذا بالأيدي الممدودة تختفي وإذا بالسائلين يهربون...!

الوشم

لم يكن الحاج معوض "حاجا" ولا يحزنون.. وإنما هو العُرف الذي جرت عليه قرية نائية في توقير شيخ كبير زوَّج ابنه وستر بناته. والحاج معوض الذى لم يذق ماء زمزم ولم يرم الجمرات، مازال ساعده الأيمن يحمل وشم "غازية" من غوازى الغجر رآها منذ عشرين عاما في فرح ابن شيخ البلد، فهّج وراءها فى العزب والكفور بضع ليال قبل أن يرده أولاد الحلال إلى عقله وامرأته.

مات الحاج معوض دون أن يحج بيت الله الحرام. ولم يخف الشيخ عبد الله خطيب المسجد استياءه من حكاية الوشم هذه وقال:

معوض لم يكن يصلى وصورة الزانية على ذراعه ستتحول إلى قطعة من نار جهنم يتقلب عليها وهو في القبر.

وهمس أحد الحاضرين وهو ينظر بإشفاق إلى الجسد المسجى على السرير.

- وما الحل يا مولانا؟

وعلى مدار ساعتين، كانت الجثة موضوعا للآخذ والرد قبل أن يغسلوها ويرشوها بعطر رخيص ثم يهيلوا عليها التراب ليستقر جدي فى باطن القبر عاشقا هزمته (مياه النار) التي أزالوا بها صورة الحبيبة من على ساعده المفتول...

ما حدث بيني وبين أم حماده

دعونى أولا أذكركم بقصة اسمها "صاحبة النزل" كتبها درويش طيب اسمه عبدالحكيم قاسم، فالولد الماكر رأى صاحبة البنسيون سمينة، ورآها اسكندرانية تمتلك عتادا رهيبا من الشخر والأح. ورآها وحيدة تعيش بلا ظل رجل، والولد الماكر كان مفلسا، ظل يتعقبها بعيون تندب فيها رصاصة. ثم أصبح يزنقها ويشم لحمها الطري، وأخيرا أولج لسانه فى فمها برائحته الكريهة، وتهاوت القلعة السكندرية أمام الضربات المركزة، وارتفعت الراية البيضاء. وحلف الولد على المصحف ألا يفضحها حين يحدث هذا الشيء الذي سيبقى سرا بينهما، هذا الذي جعل الست تطير من الفرحة وهى تهيئ جسدها، هذا الذي لم يحدث أبدا، لا لأن الولد فجأة "فص ملح وداب" بل لأن عبد الحكيم قاسم درويش طيب...

أرز باللبن

أرى البنت فتعجبني وتراني البنت فأعجبها، وهذا فقط ما يجعل القاهرة محتملة: أن يهبني الأصدقاء مفتاحا أنيقا لشقة حقيرة، أدخلها بصحبة نهدين مغرورين. أظل متوترا والبنت تريح رأسي على ركبتيها تنحني علىَّ بصدرها ثم تلقمنى الحلمة فأتلقاها ملهوفا. وحين أهدأ، أكون قد انكمشت تماما فى الحجر الأنثوي الكبير، وتطبطب على الكف الحانية، وتخدرني الهدهدة اللذيذة، وتتناهى إلى أذنى أصداء أغنية عذبة قادمة من بعيد، ثم تدعوني الملائكة إلى وليمة أرز باللبن...

بيان رقم ١

بالأمس لم تكن القاهرة غولا يفُح الصهد ويأكل الأسمنت. القاهرة بالأمس لم تكن غولا يفُح ويأكل الأسمنت. يا إخوتى قاهرتكم لم تكن غولا يفُح بالصهد ويأكل الأسمنت أمس. يا ماريا.. أنا لست نبيا. يا وائل.. أنا لا تعنينى الحداثة فى شئ!

ينسانى الموت

كانت أمى كلما تذكرت شيئا كانت قد نسيته وهى تكلمنى، تشهق فى خفوت وتقول على الفور، كأنما تعتذر:

ينساك الموت.

مجرد "لازمة" فى كلامها، لكن ما حدث هو أن التيار الكهربى فجأة انقطع، وسمعت ضلفة النافذة تفتحها ريح نفد صبرها، وعلى الفور ابتل سريرى برذاذ عنيف لمطر مذعور من شئ ما يطارده.

خبأت وجهى وغصت تماما تحت البطانية دون أمل فى أن ينسانى هذا الهادئ، الواثق، القابع هناك خلف الباب...

حنان مدفوع الأجر

هذه المرة لم تكن أمى هى التى تدفع رأسى برفق تحت الصنبور. لم تكن هى التى تتخلل أطراف أناملها خصلات شعرى فى حنان.

انساب شلال المياه الدافئ مثل ترنيمة تسمعها من على البعد. الولد الطيب، صبى الحلاق، هو من رأى الأتربة العالقة بشعرى تترسب فى حوض ناصع البياض.. مضى فى هدوء يدعك أذنى ويمسح على عينى برقة...

النَمِرة

النَمِرة العفية التى لا تنهكها طعناتى، النَمِرة التى تشخر وتعض وفى لحظة الوصول تعصرنى عصرا. جدائل شعرها الإفريقى، انتصاب حلمتها السوداء، صهد مؤخرتها وأنا أخبئ فيه وجهى. النمرة التى تحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة. والباب الذى انفتح. والعين التى وقعت على أتربة تكسو المقعد الجلدى القديم. وتجشأت زينة، واهتز ثدياها. وتحركت بفمها رائحة بيرة رخيصة. كنت تحت الدُش أرقب تكاثف البخار على زجاج الباب. وهى أم ومطلقة ومصابة بالربو تنتظرنى على السرير دون أن تعبأ باتساخ الملاءة. وأنا منزو فى ركن الحمام أتأمل حيرة طائر رسمته يتأهب للطيران على الزجاج ولم أعد أعرف ماذا أفعل به...

ثلاث غيمات

بعد منتصف الليل، وضعت سماعة الهاتف، وقلبى مثقل بالغيوم. لم أستطع الاعتراف وأقصى ما قلته:

– هذه المؤسسة التى نعمل بها لديها، رغم كل شئ، قلب صغير سيفتقدك.

فقالت:

– لا أظن.

فقلت:

– على الأقل، مفتاح الأسانسير سيحن إلى ضغطة إصبعك.

فسكتتْ. وسكتُ. ولم أعرف أبدا إن كان هذا السكوت علامة رضا. لكنى تمنيت لها أسبوعا سعيدا فى منتجعات الساحل الشمالى. وقبل أن تضع السماعة، قلت لها: وأنتِ فى الشاليه.. افتحى الشباك وطُلى على البحر الكبير

الأزرق والسماء البعيدة الزرقاء، ولو خطرت على بالك، لا تترددى فى الاتصال.

قالت:

- أكيد.

وكان لابد أن أضع السماعة الآن، لأن الوصيفات بعد ست ساعات بالتمام والكمال سيتسللن إلى مخدع الأميرة ليضعن قلبى وثلاث غيمات فى شنطة سفرها..

عن الجرعة والجميلة

-١-

هذا هو الأكازيون السنوى للإحباط!

فالحالة ضنك، وفلوس الجوائز مغرية، لكن من أين لنا بالانفعال، نحن الذين ولُدوا فى السنوات القليلة الساخنة بين ١٩٦٧ - ١٩٧٣، نظل نعيد قراءة بيانات كوبون الاشتراك، نتأمل شروط هذه المسابقة الأدبية السنوية، وأبدًا لا يضطرب فينا هذا الهدوء.

-٢-

"لسنا كُتاب مناسبات"

يقول الرفاق وهم ينسربون إلىَّ عبر الباب:

"نحن قوم لا نكتب إلا إذا انفعلنا، وإذا انفعلنا لا نغالى".

على الشاشة تتهادى مروحيات جيش الدفاع كأسماك الزينة داخل الحوض، والرفاق أعدوا النسكافيه. تحلقوا حول الجهاز لمشاهدة فيلمهم الجديد.

يرشفون من أكواب ضخمة ملونة تحمل الأحرف الأولى من أسماءهم.. والأم لبنانية نفد منها الورق فخلعت حجابها الأبيض لتغطى بقية الجثث.

"مصباح علاء الدين ليس بحوذتنا، لنأمر الخادم فتفرز أقلامنا فنا ملتهبا يليق بذكرى بهذه الحرب المجيدة، ويخلد ذلك الإنسان".

-٣-

تجاوزت المسألة مجرد الشعور بالراحة حين غادر الرفاق شقتى. وبالفعل لم تمض ساعة حتى وصلت الأميرة. ألذ ما فى ممارسة الهوى أن يكون هناك بالفعل هوى. إنك آنئذ ما إن تفتح لفتاتك الباب، حتى ترفعها من على الأرض، تشهق هى مأخوذة من جنونك لتبدأ أنت السفر الطويل، الخالد نحو غرفة النوم. فيم يزيد عنا أبطال "الجرىء والجميلة"؟ مستلقيا على ظهرى وحبيبتى ينام عريها على صدرى. تهمس:

- لقد انتهت القصة ولم يبدأ العبور؟!

فأنفث فى وجهها خيطا من الدخان.. هادئا طويل البال...

المارد المرح

.. وأحمد أبو ازدحمد طلع دين أمه.

خمس مرات يخلع الجلابية المزودة بفتحات تهوية عديدة. يقف على الكوبرى ثم يغطس وهو "باللباس" فى قلب الترعة. ومهما دغدغته المياه الخضراء الجارية، ومهما لعلع صوته المنكر بأغنية: انس الدنيا وريح بالك، فلابد أن تأتى اللحظة المكتوبة ويطلع احمد أبو ازدحمد من الترعة.

ثوان وتكف قطرات المياه عن التساقط من شعره ويشتعل السباخ المبلول أسفل قدميه، ثم سريعا يجف اللباس وينبت العرق، فيشعر أبوازدحمد بالحاجة إلى غطسة جديدة. وهكذا فى كل مرة وكأنك يابوزيد ما غزيت.

لكن أرنبا أسود ينزلق فجأة من فوهة الحر ليفترش فى هدوء التراب الحارق. أرنب فحل ورأسه كبيرة. لابد أنه ذكر. نعم ذكر لا يخاف احمد أبوازدحمد، بل ويتثاءب مستسلما لقبضتيه القويتين. يحمله أحمد فى حجره، وينطلق به نحو الدار. ولكن ما إن يقطع بضعة أمتار حتى يتحول الأرنب إلى قالب طوب تثقل حجره فيدحرجه على الأرض من سكات! وقبل أن يخلع

الجلابية تأهبا للغطسة الجديدة، يسمع زفرة حمار قريبة، يتأمله أبو ازدحمد جيدا. ويعرف أنه حمار (حصاوى) ثمنه فى سوق الجمعة بالشئ الفلانى. يقترب منه ويربت على رقبته الحليقة.

- يارب يا هادى!

هوب.. ويقفز على ظهر الحمار. يزحف للخلف قليلا حتى يتفادى النتوء العظمى البارز لسلسلة الظهر. وما إن يرتاح فى جلسته حتى يبدأ فى ركل البطن بقدميه خفيفا. لكن الحمار لا يتحرك. ينحنى أبو ازدحمد بجذعه تماما ويلتقط عود حطب من على الأرض. يوسع الحمار ضربا على رقبته ومؤخرته. وبدلا من أن يُحرك الحمار ساكنا، إذا به يهبط.. ويتضاءل.. وينكمش حتى تلامس قدما أبو ازدحمد ثم مؤخرته الأرض.

ولم يختلف الأمر كثيرا مع الخروف أبو قرن مقصوف، فما كاد أبو ازدحمد "يُلَّمس" على فروته الغزيرة حتى هبت "فسية العفريت" لتجعل منه مجرد دوامة هوائية صغيرة لم تلبث سوى لحظات قبل أن تنقضي.

.....

لا أعرف إن كان أهالي قريتنا لازالوا يتسامحون مع كل مارد مرح أراد أن يهبهم فاصلاً من الترفيه المجاني؟

شَعْر البنات

اظهرى أيتها الساحرة!

اظهرى ولن تقاتلى عيلا يتيما، بل ستواجهين ملكا رأسه برأس أبى الغضب وفيجا الكبير..

فنجل عينيه، طقطق أذنيه. لم يظهر شئ. لم يخرق الخنجر المسموم كيس الشبورة المنفوخ. فلينتظر إذن حتى تنتهى الشمس الكسلانة من تناول الفطور. وواصل مرعب الساحرة مغامرته. والتراب المبلول بالندى يلتصق بحذائه. ينزلق تحت أصابعه فيصبح عجينا.

ألقى بالحلقة الحديدية لأعلى، ولولا الشبورة لكان قفز والتقطها أحسن من مدرب السيرك الذى أقيم الأسبوع الفائت فى حوش المدرسة. الشبورة تعرف ذلك. تلك الشبورة المكارة أبيض من غطاء كفن جدو تعرف ذلك. وعلى من تضحك؟ على من تمثل طيبة منى أخته وهى عروسة عريسها عجوز مناخيره قد الكوز؟ أنه أنصح من أبى العريف وفقسها من أول مرة.

صح!

مظبوط!

هذه الشبورة هى أخت الساحرة الشريرة وبنت عم الندى إلهي يقرصه تايه عن وكره، ليعرف أن الله حق. ويعتق أكوام القش والزير وخلايا النحل وصبايا أشجار التوت والخروع وشعر البنات اللاتى يبكين الآن وتتساقط دموعهن فى دوائر كبيرة.

فجأة ضربة سيف أطارت حبل أفكاره. كان ظهرا أحمر عاليا ورأس ضخمة يراها بوضوح فى المياه القليلة الرائقة. قدِرَّ بخبرته أنها قادرة على قرض عشر سنانير. كومة قش ألقاها أمامها، ثم أتى بكومة أخرى ووضعها وراءها بمسافة كافية. شمر وباسم الله نزل القناية. ياه.. يا بنت الإيه! كيف فى ثانية تصحو من نومها تشق المياه كأنها الآلي ذو المقص يفر أمام مازنجر.

وبدأت المطاردة..

هى فى مياة مثلجة لا ترتفع أكثر من شبر. وهو على ضفتين ضيقتين يركض بساق نحيلة. هى تقترب من أحد الحاجزين.. تقترب.. تضطرب فى صورة أنفاس هائجة.. تصطدم بالفخ المنصوب.. تتفلفص.. وتمتد يده الكماشة تطبق.. تطبق...

تط.....بق على الذيل العريض اللزج للسمكة الضخمة التى نجحت أخيرا فى الفرار... وبعيدا بعيدا يظهر ثم يختفى خط من المياه العكرة...

تماما مثلما انسحبت معظم قوات الشبورة على إثر تهديد تلقته من رسل الشمس الذين قالوا إنما نحن مقدمة جيش مؤخر ته عند ملكة القرص الأصفر. كان كل ذلك زبدا على فطيرة. أمكنه أخيرا تنويع قفزاته وإظهار ما خفى من قدراته...

أبو بخيت

-١-

أعرف الآن كيف أفك مدفع زنة ٥٥٥ كجم وأنصبة فى ٤٥ ثانية. وكيف أن ذلك بخت عظيم يؤهل للانضمام إلى "الهاونجية" على خط النار فى البصرة..

وتمشى البلية...

وتبقى العملية فى النملية...

-٢-

الناس تنظر إلى لحيتى باحترام. السائقون عصبيون فى تعاطفهم:

- بسرعة يا عم الشيخ!

الكمسارية يكشرون حين يرون زبيبة الصلاة التى تعنى حصانة تعفى صاحبها من دفع الأجرة.

-٣-

هنا معسكر تدريبي..

فى حضن هرم سقارة الشاهد الوحيد على خرقنا التعليمات. المضطر يركب الصعب.. قد تحتمل الفول المسوس والأرز الملئ بالحصى وعفونة الخبز لكن الماء!

لابد من الماء. والماء فى الخزان. والخزان فوق حجرة الأخ مسئول المعسكر. والأخ يأكل أرزا مع الملائكة. وبعد الأكل لابد من حمام منعش. والحمام يلزمه ماء. والماء فى الخزان.. والجوع كافر لكن العطش مُلحد!

نحمل أكفاننا. نكتم أنفاسنا. وبعيدا عن "الكلاشنكوف" فى أيدى الحرس نزوغ..

أخ يصرخ: كل واحد يردم عليها! وصلت لجنة التفتيش إذن التى ترسلها الدول التى تمولنا. نركب الرمل حتى نهاية المعسكر ونرد ضاحكين على قطع الجاتوه وأطباق المهلبية. ودوما بختنا حلو!

لا يدوم التفتيش طويلا. فنودع دون دموع أربع دورات مياه مخصصة لنا نحن الأربعمائة رأس. نعود من جديد إلى دوراتنا المفتوحة قبلي وبحرى. نقضى حاجتنا فى الهواء الطلق ونحن نضع الجاتوه والمهلبية موقنين أنه ليس هناك فى هذه الدنيا الواسعة أحسن من البساط الأحمدى...

-٤-

دماغي أسلاك شائكة..

لكنها خُطبة الجمعة. الاستعانة بالصبر حتى ينتهى الأخ حسن الواقف على المنبر من قراءة ورقة عليها توقيع مجلس قيادة التنظيم.. ثم...

دوى صفار إنذار

بركة يا جامع

دوى قنابل

دخول الأخ القائد وصرخته فى حسن. فورا يمتثل للأمر. يُخرج من عبه راية بيضاء صغيرة. ينتظم توا طابور الصبح. حاجبى المرفوع أنا الوحيد دون راية. دقة قلبى والجميع ملوحين بالراية. يرددون هتاف حسن المبرى دون صوت يصلنى..

ضحكتى والصداع صايع.. والعتمة بنت ناس.

-٥-

وحدى أنا فى هذا الملجأ الغويط الوسيع. دماء يابسة. أشلاء ملتصقة بالأسمنت. أربط الحزام. فى الملكى أيضا يربطون الحزام. أقاوم بزلطة تحت لسانى. حين تنهار مقاومتى أبل حلقى بجرعة واحدة ثم أحكم غلق الزمزمية. تسفر جولات التفتيش بين الصخور عن ثعبان. أنزع الرأس. أقشر الجلد.. وهم يا جمل!

-٦-

أرتوى فقط حين تتكسر فقاقيع البول - المدخر فى الزمزمية - على شفتى. أمتلىء حقا من الجثث الشهية المحنطة بالرمل.

الإخوة يقولون لك: تصرف!

وما أنا إلا رادوفان كاراجيتش بمواصفات معدلة تفوق النسخة القديمة من جزار صرب البوسنة. أنهشها وسط ليل أسود من قرن الخروب. أستطعم الساق على أنها كتف. أقرمش الأذن بدلا من الدماغ...

-٧-

تساعدنى فتحات متناثرة على تعقب أنفاس الليل والنهار. أُطارد الأيام والليالى بعلامات أخطها بقطعة جير. بدأت متحمسا يشعلنى موتور الهمة.. ثم انقطع السلك...!

-٨-

لا أشك مثقال ذرة أن كرشى الآن أعظم من كروش موجهى اللغة الإنجليزية..

رخو أنا.. شمعى الملمس...

لحيتى أأعظم من لحية قلب الدين حكميتار.. أما شعرى فولا شعر أم الشعور...

-٩-

أيام مموهة. زيتية. ضيقة كعين قائد جديد عصبى للغاية. اللهم باستثناء يوم استغنيت فيه عن تمرينات "٩ استعد" عن الألغاز والفوازير. لم أعد فى حاجة للرقص بالحزام بل قلت للانهيار العصبى أعلى ما فى خيلك اركبه!

كان خافتا لكن أذنى - أذن الدولفين - التقطته. ورأيتنى مفروما فى خلاط فرحة باغية طاغية وباب المخزون الإستراتيجى من غرائز القتال وشهوات القنص ينفتح:

- مين هناك؟

لم أنتظر ردا. أنزلت السُقاطة درجتين وسحبت الأجزاء فارتطمت طلقة التهويش بالسقف.

وحصل المُراد من رب العباد.. كلمات مرتعشة تتماسك:

- ما من داع.. أنا

- انطق!

وجه أسمر منكس.. صوت تائه قليل الحيلة:

- محمد.. محمد فارح عيديد.

-١٠-

وأنىّ لى أن أعرف أن قائد المقاومة الصومالية ضد الغزو الأمريكى سره باتع إلى هذا الحد! آى نعم سمعت أن سعره قد استقر أخيرا على ٢٥ ألف دولار حسب أحدث بورصة للمطلوبين لدى البنتاجون. لكن أن تبلغ بركاته درجة حبل مُتدل من إحدى الفتحات! حبل فى نهايته - على أرض المخبأ - مقطف سياحى لعينه ملآن...

-١١-

دُخت

أفقت

زعقت

- يا جنرال.. من أين لنا هذا؟

جاء الرد كعواصف دهشور، ليس من الجنرال، بل من الحيطان والسقف والأرض. صوت غريب أشد هديرا من سواقى الهدير. أعنف ضجيجًا من محطة الكهرباء..

صوت أخرسنا جبروته فخضعت أعناقنا فى تسليم مطلق:

-إحنا الشباب أكالين الضانى.. البنت حرة والولد شرانى.

-١٢-

شمس الشموسة..

لم تأخذ سِنة الجاموسة، بل فتحت علىَّ النار. تُعاقبنى بسلامتها على إبلاغى عن هذا العيديد، على استلامى المعلوم. تُذكرنى بالسور المكهرب يحوط الآن زنزانته..

أرى ظلاً..

نداهة تبتسم...

تسعفنى حكمة جدى: عش جبانا تمت مستورا. عشت أياما أخر أشارك الرئيس المؤمن البحث عن الذات. رعشة غير ظريفة. ارتفاع حرارة جبهتى. القائد الجديد زعلان يصوب الطبنجة. يأمرنى بفتتح فمى. أجاهد كى أُنفذ الأمر قائلا تمام ياشيخنا!

-١٣-

حين أفقت كان جذع الشجرة.

وحين تجاسرت كان اللون الأحمر.

حين قلت العمر واحد والرب واحد كان شريط الرمل مفروشا بالورد، ممتدا مد البصر..

كان الجوادان أبيضين والعربة حرير.. والسلم نايلو ف نايلو..

الكرباج فى يدى..

يومض كل شئ. ينقلب الوميض توهجا. تغتسل الرمال بالنور. تختبئ عينى. يركض الجوادان... على الجانبين تلمع أشجار مانجو وتفاح.

-١٤-

ليتنى ما تركت عينى تغادر مخبئها!

وجه كقرص الشمس..

تقترب العربة. يتجلى ما لا يخطر على قلبى.. كرنفال فقاقيع ملونة تتطاير فى الفراغ.. تحيله إلى بستان من المسك والعنبر. أقترب فإذا بالوجه يسد الأفق تماما...

أقواس قزح تحدد الحاجبين. قطعان المها ترعى داخل العينين. تنبع أنهار الخمر من الخد الأيمن وتصب فى الأيسر. ينساب الصوت ناعما هادرا:

بسرعة شهريار.. شف بختك يا روحى!

تدغدغ كيانى فلبيت وأنا أخر ساجدا:

- تباركت مولانا الحب وتعاليت..

أجدنى فجأة على جناح أحد الجوادين. أمام البيت الأبيض يتركنى.

ينفتح الباب:

- للأمام سر!

طرقة طويلة معتمة وبقايا نور يشع من الكرباج...

-١٥-

فقاقيع النور نفسها تنعس على أكتاف حاسرة.

أشجار الشعر الذهبى.. عواصف البرفان...

والموضوع لا يحتاج ملاحظة قوية. إن الهمسات واللفتات، وأحيانا الغمزات، تتجمع قطرة قطرة حتى تصبر عينا رائقة تتخذ مجرى شفافا يصب فى مكان ما.. مكان علىَّ أن أتتبعه.. نعم إنى أتتبعه.. وأمضى بين موائد الفل.. أخطو عبر كئوس الهوى والشمبانيا.. أطأ مكاتيب الغرام. أغتسل بدمع العشاق. أثبت وردة العذارى فى جيب الجاكيتة. ألمح أول ما ألمح أزهار البنفسج، جذورها فى الأرض، سيقانها فارعة تصعد مغطية جانبا من الركبة. تلتف دورتين حول الوسط وأخرى عند الصدر ثم تهبط إلى الأرض.

عند الرأس يتحلق زوجان من الكناريا. عند القدمين نافورة مياهها خضراء..

وصدقونى حاولت فلم أفلح.. غصبا عنى انهارت أعصابى ولقيتنى أنفجر فى حالة هستيرية نادرة:

- لمن هذه الفردوس؟

أنقذنى صاروخ باترويت وهو يحمل جسدى إلى قعر الجحيم...

-١٦-

لم تعد العربة المجرورة بحصانين تنتظر جنابى. أذهب مؤقتا بهيلكوبتر خاصة. أبدا لا أجد مليكتى الملائكية. أثور رغم أن العظم وهن منى.. وتسريحة المارينز اشتعلت شيبًا.

- أنت يافلاح!

- وى مون بير!

- كان هنا قمر بنفسجى؟

- مون بير! ألف مرة شرحت لك يا مون بير!

أنتفض مصعوقا. يحمر وجهى فى المرايا..

- نعم يا روح أمك! ألف مرة! معمل غباء أنا؟

تنشق الأرض عن المدير. يطيب خاطرى. يأكل بعقلى حلاوة. يصفع الولد صفعة كده وكده.

لكننى أحد المناضلين من أجل الإنسان. أسئلتى شمس ينبغى طلوعها. أكظم غيظى. أتناسى البرستيج. أهمل لحظة أصول الإتيكيت. أجده يبكى. أمسح دمعه. أرفع وجهه المنكس فى مواجهتى تماما.

يا عبيط.

يتلامس أنفانا.

– اسمعنى جيدا ولا تركب دماغك. أولا قبل كل شئ لابد أن يستقر فى ضميرك أننى لم أكن أتكلم عن شفافية الركبة التى أبانت عن عظم مرمرى. ولا عن قوام جعل ملكات ميامى يخلعن أمام عينى التيجان فورا.. ولا حتى يا راجل عن صدر جعل مارلين مونرو واليزابيث تايلور تقتنيان بمشورتى فساتين سواريه بفتحات صدر ضيقة..

– طيب معاليك تقصد؟

– شئ أجلَّ من أن يُسمى.

– لو تتكرم سيادتكم وتوضح!

– سيادتى فى سن والدك.

– يعنى..؟

– يعنى يكفيك أن تعرف أن هذه الليلة لا تعنينى فى شئ...

– أكيد الليلة الثانية بعد الألف....

– أبدا يا حضرة المدير الظريف.. ليلة ما إن همست فى أذن مادونا بطرف من خبرها حتى أقسمت بحق العذراء ثم بالرابعة الطاهرة أن تتوقف فورا عن طبع كتابها "الجنس"..

ينفذ صبر المدير:

– كفى ألغازا فارغة!

يتسلق الخدر اللذيذ ساقى. يتوغل. تتقلب روحى فى كنكة مياه على النار. أظن المدير يصفق. أنبطح على المائدة.. يتجمع الزبد حول فمى.. تصل أربع بنات حسب مقاسى المفضل.. يقلبنني على الجنبين، ينفضن جيوبى، ينظفن المحفظة.. يعبثن بشعرى الفضى..

– مالك شهريار.. سلامتك..

تلفحنى الضحكات الفتية المثيرة..

يا سلام لو يعود الذى مضى!

لو تعود أيام الثور الشقى والبقرات الظامئات..

لا فائدة..

مالى لا أستطيع الرد عليهن؟

طيب نظرة..

لا مفر..

صداع صايع..

عتمة بنت ناس..

-١٧-

ها أنا من جديد.. يقظ وعارف.

ضوء خافت..

لا أثر للمدير وزبانيته.. أسمع بنتا تهمس:

الآن!

يخلعن الأرواب. يضعنها على الفراش. يحملننى وهن بالمايوهات...

أضرع:

ماذا ستفعلن بى؟

إطمئن مولاى.. باق ربع ساعة. حالا نجهز الكفن.

بكل أشواق جلال الدين الرومي يزغرد قلبى. لينا طيعا يغطس جسدى تحت ثلاثة أرواب بيضاء مبللة بماء الياسمين.. منقوش بعشرات من النجوم السداسية الكحلى...

هوامش بالرصاص فى اللوح المحفوظ

-١-

ساعات فى الحر، والعزبة اسكت هس همدانة، تنقطع الرِجل من على السكة والعفاريت الزُرق نفسها تلوذ بنوم القيلولة.. تهب نسمة يتيمة لتسلم الروح عند دوار الحاج رزق أبو مجاهد.

ساعات والبيت فخ من الطين، تطن فى الصالة المعتمة ذبابات عمياء. والبيت فخ من الطين. فى جنباته تتنوع نغمات الشخير. وعلى أسرته النحاسية الأجساد دائخة ملقاة. حاولت المحبوسة فى حضن أمها. حاولت بالفعل أن تستهدى بالله وتنعس. قالت الشيخ يحبنى لو نمت هكذا وانقلبت على جنبها الأيمن. والشيطان أبو قرون وبصبوص نار فى عينه يحبنى لو نمت هكذا ، وانقلبت على جنبها الأيسر، لا فائدة، تحاول مهما تحاول، النوم حلو لذيذ وأمها توقظها كل صباح لتذهب للمدرسة، ابن كلب الآن لا يجئ..

-٢-

فى الجرن يدوخ الحر. يتكاثف فتبصره البنت قلبا اسطوانيا نابضا. البنت لا قِبل لعينيها بهزار الشمس الثقيل، لا قِبل لقدميها بشواية التراب. السرعة هى الحل. سريعا تتجه صوب النخلة وراء الدوّار. الجيوب عامرة بالزلط. والقناة ملآى. والتراب هنا طيب. قلقة تزن ارتفاع سباطة البلح، متعشمة تنتقى زلطة مدببة. وقبل أن تقذف قذيفتها الأولى، تميل رأسها قليلا فتراه: هادئا ساكنا يستند بكتفه إلى حائط الدوار، هادئا ساكنا يتطلع إلى البنت بعيون زجاجية...

-٣-

العيال فى العزبة لديهم ألف سبب كى "يعملوها" على أنفسهم إن هم رأوا أبو نوفل. لكنها مضت وشئ إلهى – لا تعرف كيف – مسح عنها الجزع.

هكذا هى الآن لا تخشى شيئا بل تمضى فرحة مشتاقة لهذا الرائع المجهول الذى سألت الهاتف عن ميقاته فقال: حالا!

لم تبد أى تساؤل وهو يسحبها من يدها. ولم تنزعج من يمينه تنزلق من كتفها حتى مؤخرتها. لمسات خفيفة لجس النبض كأنما القلب بعد لم يطمئن.

-٤-

خدرتها رائحة العرق داخل الدوّار، فما أفاقت إلا وردفاها عاريان وأبو نوفل يتأوه. هى على بطنها مطروحة. تهرس وركها إبر الخيش. تتناسى الألم بالنظر إلى طاقة الجدار فتبصر ضروع البقر ممتلئة وتبصر العضو الأحمر متدليا بين فخدى أحد الثيران.

-٥-

الآن - من فوق سبع شرفات - تعرف كان تلاقيهما أغرب الهوامش المدونة بالرصاص فى اللوح المحفوظ، إذ لم يكن أبو نوفل مجرد حمار شغل لا أصل له ولا فصل يعمل لدى الحاج رزق أبو مجاهد، ولم يكن أبو نوفل مجرد نشفان عدمان يعرض عليك نفسه وهو يقول عضلات للبيع!

اسألوا الحفاة العراة - عيال العزبة - يقولوا كل هذا كوم وكون أبو نوفل أسود كوم..

أسود ونحيف وفى حالة لكنهم رغم هذا - ربما لهذا - لم يعتقوه. وكان مُسليا بالفعل أن تشاهدوهم بزى القتال - الفانلة والكلوت - يبص من أنوفهم سائل يجدون له حلاوة كلما مس ألسنتهم. شعرهم ليف وأظافرهم حوافر فهم الآن فى الإجازة المدرسية مرتاحون من خلقة الزائرة الصحية.

حفاة، فالشباشب سخيفة، لا معنى لها حين يتسللون من البيوت ويتجمعون فى المكان الموعود "مصلى الترعة".

ساعتها يتمثل أول أوامر "عبده الأصفر" فى الهجوم المباغت على نقلة الزلط المحطوطة فى الجرن والعودة سريعا وقد عمّر كل منهم حجر فانلته ثم إرسال العيون تأتيه بخبر أبو نوفل وعليه تكون خطة الهجوم.

كانوا يقصفونه بصواريخ الورق المُحملة برؤوس ترابية. ويقتنصونه بطلقات الطوب والزلط. وأحيانا يدكون شباك زريبة البهائم حيث يقيم بالغاب الأخضر وهو بالداخل يأخذ قيلولة. وتبقى حكة الواحد منهم لأرنبة أنفه سلاحا مدهشا يعفرت أبو نوفل ويفقده أعصابه.

أما هى فكانت طالعة لأمها البندرية: بيضاء وسمينة. الوحيدة بين بنات العزبة التى تقول "ماما". والوحيدة التى لا تعملها جهارا.. نهارا على شط الترعة ثم تبحث عن ورقة تمسح بها. وحين يحاصر العيال الحاج رزق وهو بالشمسية البيضاء فوق البغلة، فاردين أكفهم، مرددين النداء فى إلحاح غريب:

قرش يا سِيد! قرش يا سِيد!

كانت تستغرب: فلم تكن تعرف غير "سِيد" واحد هو جدها الله يرحمه. وفى مرة ضربتها أمها وهى تقول اسمه "جدو" يا حمارة.

-٦-

لم يبك أبو نوفل من حملة العيال عليه. ولم تضحك هى من المنظر يتكرر قدام عينها: أبو نوفل أسود وطويل فاض به الكيل. يقبض بيده على تكة اللباس وفى أسنانه طرف الفانلة ملموم. بعزم ما فيه يطيح حافيا وراء العفاريت الصغيرة التى أخذت ذيلها فى أسنانها وطارت. لكن ولو!

لابد أن يقع أحدها فى يده. وفى لحظة ينقلب العفريت الشقى إلى أرنب ينفجر فى بكاء مر. وفى كل مرة، وقبل أن يطفئ ناره، يفاجأ أبو نوفل بفلاح فصيح تنشق عنه الأرض ليحول بينه وبين العفريت الصغير:

- عيب عليك يابو طويلة! الأطفال أحباب الله!

-٧-

خبطة واحدة بالطوبة - يخرب بيتك يابو نوفل - وتمطر السباطة بلحا أحمر وفيرا. ولم تكن تصدق. البلح رغم الخدوش والتراب مختلف تماما عن هذا الذى تستريه أمها من عربات الكارو الطوافة. كل بلحة وأختها مستطيلة وغليظة وحمراء فى حمرتها حياة يجرى لها الريق، كالمحرومة تهجم عليه، تهم بدفنه فى بطنها، غير أن أبو نوفل بعينيه ينهرها، يحمل البلح فى مصفاة بلاستيك ويمضى نحو حنفية حوض الأسمنت ليغسل الثمار الشهية أولا...

-٨-

تفضلوا باسم الله!

أبو نوفل يفتح الآن صُرة الزاد. أرغفة مقددة من النوع الذى لا يخبزه فى العزبة كلها سوى حريم الحاج. طبق مش قديم. بصل وخيار وطماطم..

تفضلوا!

مدوا أيديكم إلى المنديل المفرود ولا تنتظروني. صحيح أنا ميتة من الجوع، وصحيح أن هذه الأصناف لم تجتمع أمامى سوى مرة واحدة فى الحلم، لكننى كما علمتنى أمى، يجب أن أمسك نفسي وأقول بأدب:

- شكرا يابو نوفل. أنا شبعانة والله..

-٩-

لقد انتهيا من العمل. ملأ "الطوالة" بالبرسيم قبل أن تسيل التواشيح من ميكرفون الجامع. وظهرت على البهائم أعراض الشبع السعيد قبل أن تتلفع العزبة بشال بنفسجى ناعم وله شراشيب.. لقد انتهيا من العمل والقمر لونه مخطوف، تبص على أبو نوفل وهو تحت الجاموسة. يداه تمسكان بحلمتين. قبضة ترتفع والأخرى تهبط وإناء الفخار على الأرض يمتلئ بزخات اللبن.. الرفيعة.. الحادة..

-١٠-

سريعا انقضت ليالى النور وجاء اليوم الموعود. والمفروض وهى تطل الآن – من فوق هذه الشرفات – أن تعزو المسألة لسنة الحياة وحكم الكبار العقلاء القائلة بأن دوام الحال من المحال.. لكن كيف وقد كانت دبورا بكامل قواه الإرادية يزن على خراب عشه!

تقعد على عتبة دارهم ويقع الآخر – عبده الأصفر عاشقها الأبدى وعدوها التاريخى – على سلالم بيت خالة أنيسة. وجهه فى وجهها والجرن بينهما تصيع فيه شلة كلاب من مقاطيع العزبة. وشمس البكور الطيبة لا تعرف لماذا أيقظتها الملائكة قبل الأوان..

لقد ملَّت هذه المعارك الكلامية التى كانت تندلع بينهما بلا مبرر سوى رفضها الانصياع لرغباته المكبوتة. واقتنعت أخيرا بأن الأصفر ابن حرام لا يجاريه أى جنى مصور فى الشتيمة التى تنطلق من فمه على هيئة رشاش سريع مُركّز لا يعتق حتى دين أم أمك الماشية فى شارع شريف حاطة أحمر على خفيف..

هكذا فى صمت راحت تستطعم البلحة وهى تبالغ فى إظهارها تلذذها. بقدمها تشوط "النواة" والفرحة لا تسعها. لكن الأصفر ليس عبيطا. لو كان له جيوب لدس فيها يديه فتصلها الرسالة أن الأصفر ولا يهمه. لكنه يا خسارة لا يرتدى سوى بدلة القتال المعترف بها فى العزبة، فلا أب ولا أم

يستوقفه منظر طفل حاف يمشى فى السكة مرحا بفانلة مثقوبة و "كلوت" بلون التراب..

يتجلد الأصفر مهما يتجلد، فى النهاية لابد أن ينهار أمام خطتها الجديدة:

- من نخلة أبو مجاهد؟

ترعشها اللذة وهو يومئ باسما..

- أعطنى بلحة طيب؟

- فى المشمس يا أصفر!

وتقهقه فيلملم الأصفر كبرياءه. تقهقه فيتوعدها الأصفر فى نبرة غضب:

- طيب!

-١١-

الذى يقهقه هو الأصفر، وهى التى احمّر وجهها واخضّر واصفّر..

- أبو نوفل هو من أعطاك البلح.. صح؟

- .....

- أعطاه لك بعدما...

ويقهقه الأصفر. يقهقه حتى يستند على الكافورة كيلا يقع من طوله.

- وحياتك لأقول لأمك!

كيف انتشلت نفسها من دوامة المفاجأة والرعب، واهتدت بعقلية الصبا إلى هذا الحل الجسور: لو رجته لزاد فيها أكثر، ولظلت إلى ما لا تعلم تحت رحمته. إذن فلتبادر وتقطع عليه الطريق..

حملت رعبها على كتفها ومضت إلى أمها تحت عريشة الزريبة. حكت ما معناه أن الأصفر هذا كلب وسخ أكله الغيظ لما شاف جيوبها ممتلئة بالبلح، فلم يجد أمامه غير هذا الاتهام القذر..

استمعت أمها دون أن تقوم من على كرسى الحمام. كانت تصب الماء الطاهر على ذراعيها وساقيها وهى تتشهد وتُكبر. أشارت لها فى النهاية، دون أن تفتح فمها، فتبعتها وهى تحمل العصا، تبعتها وهى لا تحاول حتى خلع المسمار البارز فيها..

-١٢-

ما الصبية الجميلة ذات العيون الخضراء إلا كلب أعرج يدب. الدنيا عتمة وعاصفة ترابية صغيرة تلعب استغماية. الدنيا برد. وجواسيس الأصفر أسطورة ولاء.

تُسرع

تُبطىء

تشرَّق

تغرَّب

لا ينسون التعليمات. لا يتحرشون بها. لا يزفونها وزعيمهم غائب. يكفى مؤقتا أن يتسللوا بالفانلة والكلوت فى هدوء خلفها...

القسم الثانى

المواعيد

لو كان الله خلقنى جندياً فى الحرس الجمهورى وجاء موقع خدمتى فى حى مصر الجديدة الراقى! لو كان مكتوبا لى فى اللوح المحفوظ أن أطل من برج المراقبة على المارة فى شارع الثورة بأفرول مموه مكوى وبيادة لامعة وعين مدربة على التمييز بين الثيب والبكر من نظرة واحدة إلى حضرة مولانا الهاتش!

لو تعرف مواعيدى بنت تضع العدسات اللاصقة فتهتف فى ساعة رضا وهى تشير باتجاهى:

Wow … tall، grey and handsome !

فتضحك صديقة فاضلة أجرت الأسبوع الماضى عملية "ترقيع" لاستعادة عذريتها وتلوح الاثنتان لى بمنديل كلينكس عبر السور العالى المتوج بأسلاك شائكة، ثم تتنهدان وقد لاحت أخيراً محطة المترو، تمسحان العرق النابت وتعبران إشارة المرور فى هدوء..

المصور

لكن الله خلقني مصوراً محترفاً!

رزقني عدد ٢ كاميرا "نيكون" ٣٥سم و ٧ أفلام كوداك، وقال كن عبداً جوالاً يعمل لحساب من يدفع أكثر فكنت. ورزقنى سيارة جيب رانجلر وعلبة سيجار كوبى، وقال كن مفتوناً بالشقروات الحزانى من بلاد ما وراء البحار، فكنت. وقال وقال وكنت وكنت وكنت، لكننى لا أعرف ماذا قال الله حتى تكون ماريا بهذا الجمال المسحور. تقول مسز اليزابيث – والدتها – وهى تحاول السيطرة على غضبها:

– ابنتى وقعت فى حبك. هى تقول ذلك. حسناً ولكنها صغيرة ولا تعرف عن الشرق الكثير.

تقول مسز اليزابيث إنه إن كان ولابد، فلماذا لا أتزوج ابنتها الوحيدة، بشرط أن أعيش معهما هناك، فى بيت يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر ويطل على نهر لا تطفو على سطحه الحيوانات النافقة، ولا تتجمع فى منحنياته جثث العذارى بعد ليلة حب وحيدة..

المقرئ

لكنه على أية حال لم يخلقني مقرئًا شابًا، فتيًا.. وضريرًا! يسحبنى عيل يسير حافيًا، ومن منخريه تتدلى سوائل، إلى القرافة صباح يوم فيه وُلد آدم وفيه تقوم الساعة. أشم رائحة الندى مختلطاً بالتراب الناعم لسكة زراعية صارت مقلباً للزبالة، ويتناهى إلى أنفى عبق دخان حرائق صغيرة مشتعلة فى شاطئ الترعة.

"يا مهون!"

فيستجيب رب الأرباب: الكف الطفولية فى يسارى والعكاز فى يمينى ولا عرق ينبت فى هذا البرد اللاسع وقريباً جداً نصل، أى نعم، أحس باللزوجة كلما اهتزت ركبتاى لكن "من أعمالكم سلط عليكم" إذ لولا أننى تدفأت جيداً وأنا فى السرير، ما كنت احتلمت ثم صحوت وأنا مبتل، لكننا رغم كل شئ سنصل وحالاً أكون فى حضرة أجساد ريانة بيضاء، وخصلات ناعمة تغطيها بإيشارب أسود بنات ترملن قبل الأوان وجئن يستمعن إلى آيات الذكر الحكيم يتلوها عازب لم يدخل دنيا بعد..

المحتال

فهل كنت إذن عاشقاً محتالاً؟ لا تهب رائحة الجوافة من تحت إبطيه مختلطة بعبق المانجو إلا حين تندفع نافورته البيضاء الصغيرة لتغرق سرة السيدة الجميلة وتبلل ما تيسر من شراشف السرير؟

عاشق لا يتحول لون عينيه من العسلى إلى الأسود الرمادى – اللون الخالد للمحتالين كما تؤكد دوماً – إلا قبل رشاش النافورة بدقائق معدودات، ولا يتضح التشابه الدقيق بين دقات قلبه وإيقاع خطواته أثناء المشى إلا حين بروح فى سابع نومة وتضع أذنها برهافة على صدره العريض.

كانت تنطق "سرة" بلكنة أجنبية محببة. الأربعينية الجميلة التي تسكن فى فيلا صغيرة على طريق موحش عند أطراف المدينة، وحين غارت النجوم وهدأت العيون، شكرتْ الحى القيوم على نعمة النوم العميق، والعاشق المحتال..

الثعابين

أم ترانى كنت عيلاً لا يمكن وصف نشوته وهو يطأ بأقدام حافية وسيقان مسلوعة جحور الخطر الداهم؟

كنا خبراء فى إعطاء الثعبان الأمان، ثم الإجهاز عليه دون مراعاة لزوجة تترمل أو أبناء يتيتمون، وكانت الثعابين فى غاية الحيرة إزاء قلوبنا الميتة ونحن نمثل بها، فبعد تهشيم الرأس تماماً وتبطيط الجثة، نحمل المرحوم على العصا لنزفه مساء فى موكب استعراضى يجاملنا فيه بقية عيال الحارة مشكورين بدق اللحم المهترئ، وحين يطمئن الجميع أن الثعبان مات بالفعل، ولا أمل مطلقاً فى عودة ماكرة، بشكل مفاجئ للحياة، نرميه على الأسلاك الواصلة بين أعمدة النور ليجفف التيار الصاعق ما تبقى من دمه.

أعرف الآن أننا كنا قساة قسوة تليق بأولاد كلب ملاعين، فنحن لم نر من هذه الثعابين إلا كان خير، وأقصى ما يؤخذ عليها ليس إلا حواديت الجدات عن جسم يتضخم وريش ينبت، وحيات أسطورية تهبط بجناحين فوق أسطح المنازل ليلاً..

القباقيب

هل قلت قسوة تليق بأولاد كلب ملاعين؟

كذبت و أعتذر.

كنا أولاد كلب محظوظين، لذا لزم التنويه، والفضل يرجع إلى برص ضخم أراه الآن ملتصقاً من الخارج بزجاج النافذة، أرى بطنه تحديداً.

أشيح بعينى بعيداً، ثم أعود إليه فأجده كما كان آمناً مطمئناً فى مكمنه الأبدى، أخرج سندوتش الفول، وأفتح كيس الطرشى، فلا معنى للقرف، لا معنى إطلاقا وموسيقى القباقيب لازالت ترن فى أذنى.

تكة

ولباس

وشعر كثيف مبتل يغطى سيقان المتوضئين النحيلة، يتنحنحون ويبصقون فى قرف. ليس لأن المراحيض "عامرة" ع المكشوف بما لذ وطاب، وليس لأن الحنفية سايبة وطرطشة الماء تثير الروائح "العطرة" بل لأن القرف كان من

متطلبات التقوى فى المساجد النائية التى بناها الفلاحون من قوت عيالهم، ولأن واحداً من أهل الله أصاب البرص فى غير مقتل. الدرويش الطيب فصل الذيل عن الجسد بضربة عصا واحدة، والعيال المحظوظون عاشوا وشافوا الذيل أمامهم يتلوى..

الصفصافة

لكننى لا أعرف إن كانوا مازالوا يذهبون هناك كل ضحى...

إن كانوا يبرمون ذيل الجلباب البلدى فى جيب بنطلون جينز يرتدونه تحت الجلباب وهم يبارزون الهواء بسواعدهم الفتية وتخرج أصواتهم مثل حمير طيبة تنهق ساعة صفا وهم يبتهلون: "اللهم عليك بأساتذة الجغرافيا وحساب المثلثات! اللهم بدد جمعهم وفرق شملهم واجعل أموالهم من الدروس الخصوصية غنيمة للمسلمين!".

لكن المؤكد أنه حين تحمر عين الشمس قليلاً، يضعون الكتب والأوراق جانباً وينسحبون تباعاً إلى المقبرة الوحيدة ذات العين المفتوحة ليأخذوا غفوة.

المؤكد أنهم يتثاءبون وهم يرددون المثل الذهبى الخالد "نم وارتاح يأتيك النجاح" لكن النوم لا يأتى أبداً رغم هبوب بعض النسمات اللطيفة من ناحية الترعة فتهز الأوراق فى صفصافة عجوز..

الخفر

لكنها ستكون ليلة ما يعلم بها إلا ربنا، لو كانوا مازالوا يندفعون بعد منتصف الليل نحو مبولة مهجورة يفرغون مثانة اشتكت إلى الله والله يعلم أن أصحابها لسارقون، والله لا تخفى عليه عمليات السطو بسكين المطبخ على عربات النقل المغطاة بمفارش وحبال بلاستيكية! يملأون حجر الجلابية بالبرتقال الحرام ويعزمون، كأولاد ليل يراعون الأصول على زملاء الليل من الخفر، هؤلاء الذين طالت قعدتهم بلا شغلة ولا مشغلة فقالت لهم الحكومة كونوا خفرا شرسين فكانوا خفراً طيبين. يجلسون على عتبات المقاهى الصغيرة المغلقة وتسيل الثمرات الشهية الناضجة على شواربهم الهائشة ثم يقومون أخيراً وقد أحسوا بلسعة برد خفيفة. يمسحون أصابعهم فى اللافتات الورقية المعلقة على مداخل الجوامع ويحملون على ظهورهم بنادق قديمة شبعت الناس تنكيتا عليها، ثم تتفرق خطواتهم فى الحوارى البعيدة النائمة..

البقرة

هم أيضا نفس العيال الذين طاردوا الفراشات البيضاء فى غيطان البرسيم حتى استسلمت وقالت أمرك يا صاحب الأمر وهى ترى أجنحتها الرقيقة تتفتت مسحوقًا أبيض يذروه الهواء! العيال الذين سرقوا إناء اللبن المصنوع من الفخار من دوار الحاج إبراهيم أبو مجاهد، ورفعهم أجدادهم "هيلا بيلا" على أكتافهم وهم ذاهبون إلى صلاة الجمعة، لكنهم فعلاً مثل القطط يأكلون وينكرون.

البقرة الصفراء الفاقع لونها تجمَّع حنان الدنيا فى مقلتيها وهم يزفونها إلى دكانة عم حسين الجزار، كانت ذبابات جائعة تحوم حول سائل المرض المتجمع فى زاوية العين، بينما كانت السواطير والسكاكين على كل لون يا زباين..

الأملس

أحدهم تطاول عليه الأمد وفكر أنه ليس مثل بقية خلق الله كى يزيل شعر إبطه مستخدما "كريم خاص" أو ينتفه أو يتركه هائشاً اقتداءً بالبطل الأسطورى فى فيلم "بروسلى يتحدى سوبر مان"! وبالفعل كان يحكم إغلاق باب غرفته، قبل أن يرفع ذراعه ويقرب عود الكبريت المشتعل فيئز فوراً صوت شعر أدمى يحترق، وتفوح الرائحة المميزة وينتهى الأمر فى ثوان.

لم يكن "لاسعا" أو "ماسوشياً" يستعذب صهد النار وهو يلفح هذه المنطقة الحساسة من البشرة، كان شخصاً ابن كلب والسلام، يحسن الاستغراق والتركيز، يأتى على شعر الإبط، يهبط إلى شعر صدره، ثم يهبط أكثر.

كان "مشعراً" ولكن الأمر كان قد تحول إلى مزاج فأتى على كل شعرة فى جسمه وقعت عليها عيناه، وها هو الآن، نفس الشخص الأصلع، الرجل ذاته الذى سمحنا لأنفسنا أن نغرس فى لحمه سكاكين فضولنا ومللنا، ها هو يجثو على قدميه فى حضرتها البهية، مومس أم شرموطة أم بتش لا يهم، ما دامت ترقد بسلام مفتوحة الساقين على إثر مخدر دسه لها فى الشاى، فيما كان عود كبريت مشتعل باتجاه شعرها المتكاثف مثل دغل إفريقى على نهر...

الحنطور

أما الآخر فقد ركب حنطوراً، وكان من قبل "يتشعلق" فى مؤخرة الحناطير، وكان من قبل يلف الشوارع ويخترق الحارات مستمتعاً بهذه النزهة المجانية وكان ابن ستين فى سبعين إذا رأى عيلاً غيره "متشعلق" يصرخ بعزم ما فيه:

كرباج ورا يا ابن المرة!

فيمتثل العربجى على الفور ممتناً ويفرقع بالكرباج فيرتعب الولد المتشعلق من طرف الحبل الرفيع المعقود، أما اليوم فركب حنطوراً وكان من قبل يتشعلق فى مؤخرة الحناطير..

الخرشوف

من الجائز أن يسقط أحدهم، سهواً بالطبع، من كشوف القيد داخل السجلات المدنية! أقول قولى هذا وفى ذهنى من كان بشاربه المضحك يذكرك بباشوات المسلسلات، وبجسده المتربى على السمن البلدى، و "العيش" المرحرح، لا يبدأ يومه بالصلاة على طه الحبيب "لم يكن يعرف خبث الفلاحين" ولا يستفتح بكلمة من نوع: يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم "لم يكن يعرف لؤم الباعة والفواعلية" وإنما يلعلع صوت أبو سريع رائقاً مثل الندى على وردة بلدى:

- الخرشوف الكبير.. قوى!

فتطل من المشربية واحدة ست ندعو الله أن يكون لحمها الأبيض مغسولاً بماء الياسمين، ونتمنى على الله أن يكون فى ثديها الأبيض حق معلوم للسائل والمحروم من أمثالنا، ولا يكثر على الله أن يخرج صوتها محملاً بدلع الدنيا والآخرة:

- كبير قوى يا معلم؟

فيتحسس الشاب الريفى القادم من ضواحى الجيزة ما بين فخذيه محرجاً، ويدفع عربة اليد أمامه ليمضى مرتبكاً فى شارع جانبى أرضيته بلاط وفوانيسه لم تضئ بعد..

المظاهرة

مع العلم أن بعضهم لا تأتيه الأفكار "الزين" إلا ونحن نتناوب وش الفجر على شيشة ماؤها وسخ تكاسلنا عن تغييره، وجمرها كان فى الأصل فحماً مغشوشاً، هكذا فكر البرعى وقدّر، ثم ابتهج كيف قدر، ثم عبس وقال: غدا الساعة واحدة بالثانية أنا عازمكم على اول مظاهرة حريمى فى مصر!

فى الموعد المحدد، تسللنا نحن الثلاثة داخل مجمع التحرير واتخذنا مواقعنا فى العتمة خلف النوافذ المغلقة جيداً.. كان المجمع خالياً حتى من دبة النملة، لكننا، من باب الاحتياط، خفضنا رءوسنا ووراءنا الشيش قليلاً، وبدأنا نتطلع فى حذر إلى الميدان الخالى، كان عباس أول من قطع لحظات الترقب المثيرة حين همس:

- فعلا سيخلعن السونتيانات ويحرقونها؟

- نعم، عندما يندمجن فى الهتافات.

أخرجت علبة سجائرى واضطررت لأن أعزم، فأغلقنا الشيش تماماً وجلسنا على الأرض ندخن، وعيوننا تلمع فى العتمة الحفيفة..

الجلالة

مرة أخرى أضطر أن أعزم وأتهور وأصرف ما فى الجيب، ومت يا حمار إلى أن يأتيك ما فى الغيب، وكل ذلك بسبب البرعى وعباس، يعنى بسبب أعز صديقين يرعيان – كما ترى سيادتك – فى الكباب والكفتة كما ترعى خنازيرنا الطيبة فى زبالة المقطم والدويقة.

أخذتنى الجلالة فقلت: أيها الضوء.. أيتها القطيفة.. من يشترى عمرى، ليس بلحظة فرح، بل بسبيل اسمه سبيل أم عباس، وبصفين من أشجار التمر حنة على جانبى شارع مبلط تضاء فيه فوانيس الغاز بمحبة وانتظام ساعة المغربية، من يأخذ يا عالم مستقبلى الواعد فى المؤسسة الرخامية ويعطينى بق ميه من قلة بوزها مشروم أو حتى جرعة واحدة من كوب ألمونيوم معلق بسلسلة معدنية فى زير مياه صغير تحت تكعيبة عنب؟

من..؟ من..؟

ظللت أنبح مثل كلب رأى رأس إبليس حتى لبانى الجرسون أخيراً بزجاجة مياه معدنية، فتمالكت نفسى من الانفعال وطلبت "الحلو" للخنازير وأنا فى غاية الحرج..

البخور

من أجل هذا كم تمنيت أن أكون المقصود بالنداء الفخيم الذى يرن فى الفضاء وتردد صداه الجدران.

يا ولد!

والجو يعصف بالمسك والبخور، والضوء الأخضر الخافت ينبعث من الزوايا المعتمة دون أن أحتاجه فى شئ، فالمغارة أعرفها مثل أصابع يدى، لم أدلق يوماً محبرة. لم تصطدم رأسى بالثريات المدلاة، وأنا أخف إلى هذا الجمال المتكئ على العرش، أنحنى ويتقوس ظهرى وأبالغ فى الانحناء. ليس الخوف أو التملق، العشق يا ناس، ربى وأعشقه وأحن إلى الوصال...

- أين كنت يا ولد؟

صلعته يا خواتى! وجهه العريض الأسمر، والمبسم فى فمه لونه أرجوانى.

- قررت أبنى مصر يا ولد!

وأنا على الشيشة منكب، والماشة الفضية فى يدى، أحنو على الجمر المتوهج.. أرص الصنف الملوكى والدنيا لا تسعنى. إنه أنا اختصتنى عنايته بهذا الشرف الرفيع، حِدق من يومى. وبفضل حداقتى سيكركر ماء الشيشة الوردي ويتهادى الدخان المقدس من منخريه وفيه..

القديس

لكن النداء الذى قُصدت به كان أنثوياً مبحوحاً يوقظ الرجولة فى الحجر:

- تعال!

فتدفقت على الفور ذكريات كنيسة بعيدة مغمورة بالضوء يعلو قبتها تمثال من البرونز أسيد الشهداء وهو يصوب رمحه المقدس إلى التنين، وهلت الروائح القديمة المحبوسة فى الأقبية المعتمة ممتزجة برائحة شمع جديد يحترق.

واتخذت الدنيا بحالها شكل صليب تجلى طيباً وحنوناً عبر الطلاء الرطب على الجدران العتيقة، عبر الشمعدانات الحديدية والأيادي الرقيقة لآنية الفخار، وعبر فتحات التهوية قرب السقف العالي.

- تعال الآن!

غرفة التعذيب، وقد تحولت إلى مزار، هى وجهتنا وكل مال يحن إليه جسدانا، نخفض رأسينا حتى لا نصطدم بالسقف، الواطى هنا، ثم نركع متعانقين فى العتمة المطرزة بضوء الشموع.

- الآن يا حبيبى!

كم كان حيياً مولانا القديس وهو يطل علينا من الأيقونة..

العشب

.. أما إذا ضربنا الحنين إلى الخضرة، جئنا هنا حيث الحديقة الوحيدة التى غفل عنها البوليس ونساها السادة المخبرون!

صباح مضئ...

شمس واهنة..

عشاق، من الفرحة، لا يصدقون أنه بإمكانهم أخيراً أن يستلقوا على الحشائش دون أن يسرع إليهم مرتبكاً حارس شاب ليقول فى حرج.

- ممنوع!

ويلسع عينيه انتصاب الحلمة تحت بلوزة خفيفة مخرمة.

ويمد من الشوق لساناً يرشف حليب البشرة الملساء للبطن المشدودة. تستند حبيبتى على كتفى وهى تقوم، بينما أتطلع إلى وجه العاشق المحروم، فتأخذنى الرجفة لكن العشب يوصينى بالسكوت..

الضوء

هذا لا ينفى أننى ذات مرة وضعت رأسى على المخدة، منذ ساعة زمن لا أكثر، مهدود الحيل رحت فى النوم كأى ذبابة دايخة قبل أن يستيقظ أولا تليفونى المحمول. تسلل إلىّ رنينه المتعب كأنين خافت فى بئر غويط، ثم تدريجيا تصاعد لأشعر بشاكوش يطبطب فى غضب على دماغى. تأهبت أخيراً لسب محدثى بالقبيح وأنا أقول "ألو" لكنه همسها أتانى مجروحاً:

- لا تخني وسأعطيك كل حاجة حلوة!

أفقت، فأغلقت هى الخط فوراً تاركة لى مستطيلاً من ضوء الفجر الأبيض، وقطرات ندى متكاثفة على زجاج النافذة أخط بها إسما أعبده وأنا أتنهد، ثم يصفو ذهنى تماماً..

السهارى

.. وبناءً عليه

فالذين اعتادوا التنزه ليلاً على الكورنيش عند "جليم" ربما يتفهمون بسهولة ما سأقول و الكذب الكذب أقول.

كانت ذقنى أشواكاً وشعرى غباراً حين رميت جسدى المهدود على المقعد ١٣ فى باص السوبر جيت لأشفط دمعة الحيرة من عينيها، وصلت إلى المدينة التى لا تنام قبل منتصف الليل. هاتفتها من سنترال بدائى مزدحم، فلم تصدق أننى تركت كل شئ وجئت، غافلت البواب الصعيدى وصفرت لها من تحت الشرفة فبدأت بالكاد تستوعب المفاجأة.

وأخيراً انكمشت فى حضنى ونحن على حافة لسان صخرى يمتد طويلاً داخل البحر الراقد فى العتمة، الهواء المنعش أهدانا جميع التعليقات الجارحة للطيبين من عابرى الكورنيش السهارى..

العاشق

هذه المرة كان اللسان الصخري يمتد نحيلاً داخل بحيرة بعيدة لا يزال سطحها يحمل آثار أقدام الأنبياء، وداخل واحدة من ٢٠٠ غرفة بُنيت على هيئة أبراج حمام، لابد أن حبيبتي تتناول الآن شراباً تعاركت عليه الآلهة قديماً ويداوم مصنع فى جنوب فرنسا على تسويقه إلى هذا الفندق المهجور. أحمل إليها بيض السمك الفاخر، فتخرج من تحت البلاطة أوراق البوكر:

"هنا اغتالوا العاشق البدين!" فأهز رأسى موافقاً على كلماتها.

"كان ينوى أن يواصل اللعب، لكن الفلاحين هزأوا بشاربه الملكى المبروم، وحضرة البكباشى سرق عويناته المستديرة!"

أحتضن ارتجافها تاركاً دموعاً ساخنة تسح فى هدوء..

الفوشيا

إنها مولاتى التى تعشق بلوزتها الفوشيا بشكل خاص، فهى تبرز خصراً ينافس خصر راقصات المعابد على الجدارايات الفرعونية بعكس الأغلبية الساحقة من حسناوات مصر الطيبات اللاتي يعانين هذه الأيام من فائض شحوم ودهون لم تعد أردافهن الرجراجة بقادرة على استيعابه. ولأن البلوزة من دون كم، تضطر مولاتى إلى ارتداء شال أبيض منقوش بورد بنفسجية حتى تدارى عرى كتفيها وذراعيها عن عيون أولاد الحلال المشتاقين لسنتيمتر من اللحم الأبيض.

وحين نصل إلى بقعة ظليلة فى حديقة اليوناني الذى شنقه قديماً حاكم المدينة الساحلية ليجعل قصره مخدعاً لمحظياته، يمكن لها أخيرا أن تخلع عنها الشال وتمارس هوايتها الخالدة بأن ترقد على بطنها فى استسلام لذيذ للهواء الذى يضرب تنورتها الخفيفة، وللعشب الناعم الذى يترك علامات على خديها.

الجسد يحن كما الإبل، والشهوة تضرب نافوخى، غير أنى أظل وفياً لمهمتى كحارس أمين على الجمال النائم، عينى فى رأسى أعرف خلاصى، وأراهم على البعد فأعرفهم فوراً، يقول أضخمهم فى لهجة آمرة:

- قل لها تتعدل وتقعد مثل بقية الناس أحسن لك!

فلا نتمالك أنفسنا من "كريزة" ضحك تتنابنا فجأة فتدمع أعيننا، ونخرج للمخبرين الثلاثة، وقد أعطونا ظهورهم، لساناً لا يزال مطلياً بحمرة البنجر منذ الفطور..

الآسيوية

قررت إذن، من باب الطاعة والإخلاص لإله الرغبة، إطفاء الأنوار فى الغرفة رقم ٢٢١ ولم أبق إلا على نور الأباجورة الخافت. كان أصبعى ينزلق سريعاً عبر الشعر الناعم البعيد، طار النوم من عينى تماما. تثاءبت هى وهمست:

- I want a Sexlees night!

ثم أبعدتْ يدى برفق، لكن بحسم، وأعادت قطعة الملابس الداخلية المخرمة إلى وضعها السابق. ما العمل إذن، والواحد منا تشعل رغبته نملة عابرة؟ ومن رأيتها يا ناس على قناة الـ arte الفرنسية وأنا أغالب النعاس لم تكن نملة، وما حدث مع مهرة بيضاء آسيوية تهادت بفستان زفاف ممزق عبر مجرى مائى يخترق غابة استوائية كان شيئا يفوق حكمة الشرق الأقصى. وهل كان باليد حيلة وأنا أتسلل مرة أخرى إلى ٢٢١ مداريا توترى عن عامل سرفيس يخطو قبل الفجر بطيئاً فى طرقة رومانية طويلة تختبئ فيها كرات النور هنا.. وهناك..

البرونز

ثم قررت أن أعود مرة أخرى ولداً طيباً يلقى التحية فى أدب وخشوع.

- عمت صباحاً سيدى نابليون!

لكنه فى وقفته الشامخة يقبض على سيفه ولا يرد، فنقول له طز فيك الله يخليك، ثم نستدير إلى الست أفروديت نعافيها بالعافية، لكنها شاردة ترنو بعين ساحرة إلى لا شئ، وأبداً لا يُغلب حمارنا، نظل نتمرغ على العشب المندى، ونحن نتلو قائمة التعظيمات على أجساد رائعة الحسن تأكلت منها ذراع منحوتة من الجبس أو نهد من البرونز، ومازالت فى وقفتها الأليطة، عند مدخل الحديقة، تسد عين الشمس...

مولاى

لن يجبر بخاطري إذن سوى مولانا "ممنون" الجالس فى عظمة عند مدخل البر الغربى لحراسة هذا الملكوت! سأحمل له رغيفين بتاو وحتة جبنة قريش وأقول له سايق عليك النبى محمد يا شيخ تمد إيدك باسم الله وما تكسفنيش!

وحين تظل العين الجميلة المنحوتة من الجرانيت الوردى ثابتة لا يطرف لها جفن سأعرف أن آدى الله وآدى حكمته، وسأنتظر حتى يحل منتصف الليل وينام الخفر لأتسلق، مهتدياً بضوء النجوم، الحاجز الحديدى المضروب حول الأصابع العملاقة. سأسمع اللحن المميز يتصاعد خافتاً من الناى المنتصب بين يدى مولانا، وستطلب مراقصتى أرواح قدسية نهبوا قبورها وعرضوا أجسادها بسعر "متهاود" فى سوق البازار..

الجعران

الجعران هو الآخر كان منحوتاً من الجرانيت الوردى، والحجيج من كل الجنسيات. هؤلاء المؤمنون، عباد إيزيس وأوزوريس، تركوا ندف الثلج، وتشابك الأغصان فى الأحراش، وجاءوا يطوفون حول إله جديد تحيط به أربعة قوائم معدنية موصلة بحبل من قطيفة حمراء ناعمة. كانت حبيبتي مندسة بينهم تنتظر أن تتم دورتها السابعة حتى تتحقق لها أمنية، وكنت أستحم فى الشمس على حافة بحيرة مقدسة تفوح منها روائح ماء آسن..

الموسيقار

وحين لم نكن سويًا، لمت شعرها فى ذيل حصان فيما كمنت أنا بين الفروع فى هدوء. أزاحت بعض الأوراق وأطلت على القفا العريض المحترم لحضرة الموسيقار الجالس ساقًا على ساق فى منتهى الأنفة والكبرياء.

كان الصبى قد صعد إلى الركبة وعلق الجردل من يده الحديدية فى الأذن، ثم بدأ يغسل الظهر بليفة جديدة وصابونة لها رائحة الليمون. يغسل يغسل يغسل، وحرارة الجو تلتهم الرغاوى أولاً بأول حتى وصل أخيراً صبيان آخران يجرجران خرطومًا ثقيلاً. كان الرذاذ منعشاً يكاد يتسرب من بين الأوراق إلى وجهها الجميل، بينما كانت الصلعة اللامعة للموسيقار صامدة فى مواجهة رشاش الماء المتدفق صوب الجسد البرونزى الهائل..

الحرس

كنت مغلوباً على أمرى أعود وأتجرأ وألف ذراعى حول خصرها.

الدنيا ليل..

الشوارع الجانبية اسكت هس.. وأنا العاشق أخطف البوسة فتدوخ البنت، وترتبك منها الخطوات. يلمحنا البواب النوبى من على دكته الخشبية فيتراخى نفخه فى النار. يصوب إلينا نظرة غامضة وهو يفرك يديه على مهل متناسياً لسعة البرد، بينما يكف حرس السفارات من عساكر الأمن االمركزى عن الهزار. يصمتون تماماً وهم يرقبوننا من على الرصيف المقابل، وحين تلتقى عينى أعينهم يتظاهرون بالإنصات إلى راديو صغير يلصقه كل منهم بأذنه. نصل إلى التقاطع مع الشارع الرئيسى فتدهمنا أضواء السيارات. يتعمد سائقو الفولفو والأوبل فكترا والـ BMW القديمة حصارنا بوابل من أنوار الفلاشات المتلاحقة، بينما تخرج هى قلم الروج لتصلح ما أفسدته شفتاى..

الإخلاص

حدث هذا رغم أننى جاهدت سنوات كى لا أقع فى الحب! إذ كيف لمثلى أن يخلص، والشجرة لا تغنى عن الغابة، لكن الفأس وقعت فى الرأس، وأحببت، وعرفت أن الله حق، وعرفت أن الله لو كان خلقنى شاعراً مثل محمد البرعى لقلت:

أنا لما بحب

بحب بجد

ولما بحب بجد بموت

هل الحب هو الموت؟ يهيئ لى أن البرعى ولد سكندرى يلعب بالبيضة والحجر، الحب هو الإخلاص، والإخلاص هو أن تتورط أكثر فأكثر فى العادة السرية، بينما حبيبتك على يقين من أنك تفرغ توترك كل مساء بين نهدين لا حد لنعومتهما..

الخدعة

وتذكرت أننى لم أكن الوحيد الذي رآها أمس وهى وافقة على ناصية الشارع الشهير فى انتظار زبون يغريه شعرها المضروب بالأوكسجين أو يستفزه صدرها العاري التى تكفلت بعلاج ضمورة جراحات التجميل. لم أكن أيضاً الوحيد الذى باع له واحد ابن حلال الشمس فى "قزايز" وجعله يصدق أنها جاءت قديماً من الريف الجوانى بجلباب أخضر فضفاض وضفيرة مدهونة بزيت الزيتون تحمل فى يدها سنبلة، فقط كنت الوحيد الذى هزته رعشة خفيفة وهو يفتح شباك عربته ويصنع من كفه بوقاً لينادى أمه بصوت مختنق..

الجنة

وقلت: المصطافون الهاربون من جحيم البلاج إلى جنة العزلة هم وحدهم الذين سيعثرون علىَّ، فقط عليهم تخطى سلسلة متقطعة من التلال الرملية، وعبور ٥٠٠ متر من العشب الكثيف المحترق، ثم تحطيم أكبر قدر ممكن من مخلفات القواقع البيضاء الرقيقة تحت أقدامهم الحافية. ساعتها فقط يمكنهم أن يشهقوا مأخوذين حين تظهر أمامهم فجأة مزارع السمك الممتدة على هيئة مستطيلات لا حد لفتنتها من المياه الفضية.

ستضرب خياشيمهم الرائحة القوية المنبعثة من الملاحات القريبة وسيستغرقهم منظر الزبد المتكاثف عند الشاطئ كطبق جيلى يقاوم الريح الواهنة، وسيعثرون علىَّ طافياً، أنا سمكة البورى التى نقرها طائر أبيض جميل..

الأوبرا

ورأيتهم فى مساء كهذا يهبطون ملثمين من الخيام البعيدة على دار الأوبرا. غاصت أقدامهم الحافية فى شريط السجاد الأصفهانى المؤدى إلى الـقاعة الرئيسية وضوت سيوفهم تحت كشافات الإضاءة ولاحت حبات الرمل عالقة بلحاهم الكثيفة الملبدة. كانوا يرتدون السواد وهم يسيرون فى صف طويل يتقدمهم كبيرهم وعرج خفيف يصبغ خطواته أثناء صعوده خشبة المسرح.

اعتدل فى جلسته على المقعد الجلدى الوثير ثم دق فجأة بمقبض سيفه على المكتب الذى جئ به من لندن خصيصاً لهذه المناسبة.

صاح:

إن الحمد لله!

فتوقفت على الفور الفتيات الشقراوات عن عزف مقطوعة لفاجنر، وامتدت لا شعورياً الأصابع الرقيقة تدارى ما أمكن مداراته من نهود كانت تطل بأعناقها من فتحات الصدر الواسعة فى فساتين السواريه.

أطرق الكبير لحظة يحدق فى وجوه مستقبليه، ثم هز رأسه في أسى قبل أن يريح رأسه على المكتب ويغمض عينيه ويتعالى شخيره رويدا في فضاء القاعة المستتب..

القسم الثالث

ناصرة "ا"

هى الصفة الريفية المؤنثة من " ناصر" وينطقونها "نصرة" لكنها ـ وهذا هو ما يهمكم بالطبع ـ طبق البقلاوة الشهي الذي سال فجأة على شوارب خضراء بدأت في الظهور. البيضاء التي نجت بشرتها من قيظ الغيطان وتمرد جسدها على " الجبنة القريش " والليمون المخلل فلم يأت نحيفاً قصيراً على عادة البنات هناك..

كيف لبنت "١٧" ذات العيون السوداء الواسعة والصوت اللين الخفيض أن تستسلم لطابور من العيال الذين حولوا كنوز أنوثتها إلى قفص طماطم يُباح للزبائن التلاعب فيه ؟

لم تكن تتقاضى أجراً أو تستمع بمضاجعة مراهقين يتوقون إلى إثبات رجولتهم ولو مع أنثى أتان عجوز، فإذا بالأقدار تهديهم النسخة المحلية من "امرأة عزيز" لا تبحث عن يوسف وإنما تقبل هذه المرة بأي خنزير مستثار...

ناصرة..

عن أي شيء كنتِ تبحثين؟

ناصرة "٢"

أنا ـ بلا فخر ـ أحد هؤلاء الخنازير المستثارين..

قلبي مُعلق بالغرفة المعتمة التي كانت بالأصل محلاً للبقالة يبيع فيها عبوات مسحوق الغسيل واللبان المر أب عجوز. مات الرجل وسافر ابنه للعراق بعد أن سمع كثيراً عن الدجاج المشوي ولم يعد بالبيت سوى أم ضعيفة النظر أكلت ركبتيها الخشونة وفتاة تقول للقمر: قوم وأنا أقعد مكانك.

لكن ناصرة في الحقيقة لم تكن تقول شيئاً. كانت تُجيد لغة الصمت وفن تسبيل العيون. آلت إليها الغرفة ذات الباب الذي يفتح على الشارع وتخرج منه الزبائن مُحملة ببقايا البضاعة الرخيصة. تمر الساعات وهى واقفة في الشباك تتلقى نظرات المعجبين وإيماءاتهم العابرة...

"عِز" بالشال الذهبي وجلبابه الأبيض المُعطر كان ابن الجيران الذي يكبرها بعامين ويعرف البئر وغطاءه. نظرة فكلمة فابتسامة فقطرات دم وألم فظيع. عز علق باقتضاب وهو يلهث:

ـ عادى.. لأنها أول مرة ..

على عكس المتوقع، اكتفى عز بشرف الريادة كأول من قطف الوردة. وزهد الصنف المحلى سريعاً وامتد نشاطه إلى البلدات المجاورة...

أما ناصرة التي حباها القدر بجسد مهرة وعقل طفلة فظلت تتوقع الألم باعتباره شيئاً طبيعياً كلما نُزع لباسها الوردي. ولم تفهم أبداً لماذا يحرص بعضهم على الاحتفاظ بقطعة من ملابسها الداخلية ليرفعوها وقت اللزوم في وجهي، فيخرسوا لساني المُشكك ويفطرون قلبي المكلوم..

ناصرة "٣"

من فوق السطوح يا ناصرة أبعث إليك بتغريدات الهوى قبل أن يعرف العالم تويتر. بيتنا هو الأعلى في القرية "ثلاثة طوابق" ولا يفصل بيني وبينك سوى ترعة نحيلة وعدة بيوت واطئة.

أنظر إليك فتبتسمين..

أبتسم تضحكين..

أضحك فتستسلمين لحضني..

لا أعرف ماذا أفعل بعريك وقد صرت أيتها الحسناء أشهر سر مُعلن يتقاذفك كما الكرة ذكور قريتنا رغم أنك لا تشعرين بلذة.

لست حيواناً لألتهم اللحم مهما كان بارداً...

لست ملاكاً لأتغاضى عن غواية النهد الأبيض الذي ينافس باستدارته وشموخه إبداعات اليونان القديمة...

ناصرة "٤"

"ضُبط حسن مع فتاة في ساعة متأخرة من الليل"

بخط ركيك وطلاء رخيص يميل للون البنى استيقظت القرية على هذه العبارة مكتوبة على جدران كل من الجمعية الزراعية والسور الطويل لملعب مركز الشباب وواجهة جمعية الشبان المسلمين...

وعلى مدار أسبوع غرق الجميع بجدل لا ينتهي: من هو حسن هذا وأي فتاة تلك، ومن يا ترى الذي قرر الانتقام ولماذا...؟

الكبار استعاذوا بالله من غضب الله والأمهات الطيبات دعون المولى بأن يستر على ولايانا وخطيب الجمعة حذر من عاقبة تتبع عورات الناس، أما ناصرة فقد زارتني في المنام وأقسمت لي:

صحيح أنني فرطت في عرضي ومرغت شرف أهلي مع طوب الأرض، غير أنه لم يكن من بينهم ـــ قسماً بالله ـــ شخص اسمه حسن!

ناصرة "ه"

"إنها مجرد فتاة تعانى من التخلف العقلي بدرجة ما. وهذا ما يفسر خروجها من الدراسة وهى لا تزال في الصف الثاني الابتدائي كما يفسر عدم إدراكها للدلالات الأخلاقية أو الاجتماعية المترتبة على خلع ملابسها، وأيضاً، وهذا هو الأهم، يوضح لنا لماذا تفتقد للشعور باللذة أو الإثارة أثناء الممارسة نفسها وتتصور أن الأمر مجرد لعبة".

كدت أهتف فرحاً وامتنانا وأنا أستمع إلى تفسير الصديق القديم الذي تذكرته فجأة وأنا غارق في حيرتي فقدت سيارتي من القاهرة إلى "البلد" لأستفتيه بشأن بطلة حكاية قديمة عمرها عشرون عاماً...

لكن فرحة ما تمت!

صديق ثالث حضر الجلسة قال: لا.. هذا الكلام ليس صحيحاً. من الثابت علمياً أن التلميذة المتخلفة تهمل مظهرها مثل "عطيات" التي كانت تغطى مادتها المخاطية نصف وجهها، بينما كانت ناصرة رمز النظافة

والجمال، ولازلت أذكر الأشرطة الحمراء الزاهية التي تزين جدائل شعرها الناعم مثل قبلة ساخنة في الأحلام...

تراجع بمقعده إلى الخلف قليلاً حيث كنا نجلس على مقهى صغير بجوار محطة السكة الحديد ثم أضاف وهو ينظر لقمر مكتمل في السماء: كان حذاؤها الذي يخفى أصابع صغيرة منحوتة لامعا على الدوام، وكانت ضحكتها أذكى من أينشتاين وتعليقاتها تجعلها نجمة في مسابقات أوائل الطلبة..."

ران صمت ثقيل ثم تنهد ثلاثتنا بعمق حين أدركنا أنني لم أكن العاشق الوحيد..

ناصرة "٦"

قالوا لي: عليك بـ "البرنس". على يديه ستكشف المستور ويسطع في قلبك نور الحقيقة...

سألت: من هو بسلامته ؟ أجابوا: نجم نجوم شلة الأشباح .. فتية آمنوا باللهو وسهروا حتى مطلع الفجر في الدكاكين والطرقات. يأكلون بشراهة ويسرقون حمولة سيارات النقل من الفواكه.

البرنس بالذات كان أول من تمرد على قانون عدم إلقاء المخلفات في رحم ناصرة. أتى لها بحبوب منع الحمل التي كانت تباع في شرائط ذهبية عبر محلات البقالة إلى جوار رؤوس الثوم وأقلام "بيك" وأقنعها بأن تتعاطاها بانتظام...

قالوا أيضاً: اطمئن... لن تضطر إلى المجيء للبلد وتقود أربع ساعات من القاهرة إلى أطراف دمياط، فالبرنس أصبح الآن - و العقبى لكم- يمتلك معرضاً للموبيليا عندكم في القاهرة ..

أخذت هاتفه وضربنا موعداً بعد انتهاء ساعات العمل حتى لا يزعجنا الزبائن أو العمال. وفى الوقت المحدد فتح لى مكتبه الذي يحمل البصمة المميزة لمحدثي النعمة ثم فتح لى أحضانه أنا ابن البلد الذي يظهر فى التليفزيون وتنشر الصحف صوره. اقتربت منه وعلى وجهي ابتسامة تمساح هادئ. كان الكاسيت الضخم أمامه تصدر عنه أحدث روائع الغناء الشعبي: هاتى بوسة يا بت!. أراد أن يخفض الصوت فطلبت منه أن يرفعه أكثر. وحين دنت اللحظة انطلقت الرصاصة من "طبنجة" حصلت عليها بمساعدة صديق يعمل بمكتب وزير الداخلية ثم خرجت سريعاً من باب خلفي يفتح على شارع يسبح في الضجيج...

خالتي نادية

كان الباب الذي يطل على الشارع مباشرة ضيقاً للغاية حتى أنني رغم نحافتي لم أستطع النفاذ منه إلا بصعوبة. ثلاث درجات من سلم غير مريح تهبط بك إلى أسفل قبل أن تستقبلك صالة فسيحة، ظللت أتمشى في المكان الذي يشبه مخابئ المصريين من غارات الألمان بالحرب العالمية الثانية وبينما أبحث عن مكان مناسب للجلوس، إذا بى وجهاً لوجه أمام مفاجأة عمري: خالتي نادية بوجهها المستدير الأبيض تتطلع لي. تملكني فيض من الفرحة رغم التساؤل العابر الذي طفا على أمواجي: لماذا تبدو مقتضبة للغاية في ترحيبها الآن وأنا الذي اعتدت منها على حفاوة الدنيا حين تستقبلني وتمطرني بقبلاتها وأحضانها؟

لم تكن بمفردها وهى تجهز أقراص العجين بصينية كبيرة أمامها استعداداً للخبيز تساعدها ابنتاها هند ومنى. فجأة انبثق ثقب أسود هائل في سماء اللحظة ليمتص كل آشعة الفرح حين تذكرت أنها ماتت منذ سنوات بالمرض

الذي تسميه أمي بـ "اللى ما يتسماش" وأنني لم أودعها وهى على فراش غير نظيف فى مستشفى حكومي بل أنى لم أمش في جنازتها....

عدت أحدق بوجهها وازداد يقيني أنه ليس سوى القمر ليلة اكتماله وبصوت مخنوق قلت ببطء وأنا أضغط على الحروف حتى لا تهرب:

- أنا بحبك قوى يا خالتي!

ارتبكتْ قليلاً ولم ترد بينما رحت فى نوبة بكاء وحين صحوت من النوم كانت المخدة مُبللة بدموعي..

عمى إبراهيم

كنا كعادتنا القديمة في الأرياف، كلما ذهبنا إلى بلدة مجاورة لحضور عرس أو مأتم اتخذنا من سيارة ربع نقل مخصصة للرمل والأسمنت والخضروات وسيلة نقل جماعية. أكبر رأسين بالعائلة يجلسان بجوار السائق أما البقية فتتكدس في المقطورة. المدهش أن عمى إبراهيم، صاحب الأطيان واللسان اللاذع الصريح، لم يركب بجوار السائق رغم أنه الآن كبيرنا بعد رحيل عمى "مبروك". كان لا يزال أحمر البشرة مثل انجليزي نشيط في شيخوخته. الشيء الوحيد الذي تغير فيه أنه أصبح يتوكأ على عصا أنيقة.

- كيف أحوالكم ؟

قالها موجهة لأعمامي وأبناءهم، أما أنا فتلاقت أعيننا بومضة سريعة أهداني فيها تحية لم تكن حارة ولم تكن باردة:

- كيف حالك !

هكذا هو العم إبراهيم دائماً: يعشق الإيجاز والكلمات القليلة الحاسمة أما هذا الاختراع المسمى "مجاملات اجتماعية" فلم يسمع به قط. سأل أبى ذات مرة وهو عائد في أجازة عمل قصيرة من الرياض:

- يعنى الشغل هناك مذلة ؟

ابتسم أبى وقال بهدوء:

- يا حاج... الرزق بيد المولى أما الكرامة فبيد الإنسان!

وصلنا إلى البلدة لكن هاتفاً ناداني أن أعود فوراً إلى حيث بدأنا الرحلة، عدت فإذا بعلبة صغيرة من الورق الملون ينبعث منها شعاع من الضوء الأبيض. ركضت مبهوراً وفتحتها. كانت مليئة بقطع من قوالب السكر المنحوتة على هيئة عرائس صغيرة . أيقنت أن مذاقها لا ينتمي إلى الأرض وإنما قادم رأساً من الفردوس الأعلى. أيقنت من هذا يقين الصديقين والنساك دون أن أتذوقها..

ولم أستغرب حين سألت وتأكدت أن أطفال العائلة يعشقون تلك القوالب الصغيرة وأن العم الذي رحل عن دنيانا منذ سنوات أراد أن يفتح شباكا صغيراً بالسماء ويطل منه على أحبابه في الأرض.. الشيء الوحيد الذي أثار استغرابي: لماذا اختارني – أنا المدنس بالخطايا – لأنوب عنه في هذه المهمة؟

المطرب القديم

المطرب القديم سرق قطعة من روحي وأنا مراهق في السادسة عشره ثم غاص في الموج البعيد الرمادي للنسيان. وبينما أقص الآن شريط الأربعين من العمر، أستعيد هتافه الحار كعصفور مذبوح:

"لا السهر بينسّى

ولا السفر بيرسّى"

كان يغنى للواقفين على الموانئ القصية، أولئك الذين مرقت السنوات من بين أصابعهم مثل ماء ملعون. كان يغنى لامرأة ما أسكنها:

" ضفاير شمسي "

لم أغفر للشعراء تلك المبالغة المبتذلة عن غزل خيوط الشمس بأصابع العشاق، ولا تسوية ضفائر الكون لتصبح فراشاً، لكنى بالتأكيد غفرت للمحبوبة تثاؤبها وهى تقف في الشرفة تستمع لهذه الترهات...

المطرب الإنجليزي

سمعت أننا لو عبدنا الله حتى نتجنب عذاب النار فما نحن إلا عبيد يسعون لتفادى غضب سيدهم، ولو عبدناه طمعاً في جنته فما نحن إلا رجال بيزنس يبحثون بالآخرة عن صافى الأرباح نظير استثماراتهم في الدنيا، أما لو عبدناه حباً لذاته، فقد بلغنا - حسبما أذكر - درجة السمو والكمال...

تذكرت كل هذا ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بمطرب بريطاني قديم رنت كلماته في أذني ذات مساء بعيد وأنا بالمطعم الفاخر أتناول بمفردي عشاء بارداً:

If this heaven، I am not afraid of hell

ثم حدث أن جاء الخريف. عشرون مرة جاء فيها الخريف ، ولا زلت أسائل الُركّع الساجدين: ترى.. ما الذي رآه بالضبط المطرب الحزين حتى يقرر بكل صدق وتجرد أنه لو كانت الجنة هكذا، فإنه لا يخشى الجحيم...؟

ملائكة اليوتيوب

بالأمس رأيت جمعاً من الملائكة .كانوا بالضبط كما نتصورهم: كائنات نورانية تتجسد بهيئة طيور بيضاء اللون، تهبط – واحداً تلو الآخر – من السماء على الكعبة وهى تخفق بأجنحتها في هدوء وانسيابية...

اليوم رأيت ملاكاً هائل الحجم يسد بعينيه الجميلتين وحاجبه المقوس طرف الأفق عند المسجد الأقصى. لم أر ذلك لأنني نبي أو واحد من أصحاب الكرامات كشفت عنه الحُجب، بل لأني أملك وصلة انترنت باشتراك شهري قدره مئة جنيه أدفعها بانتظام لصاحب "سايبر" على ناصية الشارع ويمكنني الدخول على موقع يوتيوب الشهير والترفيه عن نفسي بهذا العرض المجاني المتاح للملايين وهم في الليالي الشتوية يحتسون مشروباً دافئاً.

مقطع الفيديو الخاص بملائكة الكعبة قِيل إن كاميرات الحرم المكي التقطته، أما الملاك الأزرق اللون الذي يسد بوسامته الأفق فظل مصدره غامضاً.أطفأت الكمبيوتر ثم نور الغرفة وأغمضت عيني وقد أصبحت روحي قطعة من الإسفنج تطفو على موجة رمادية من الأسى...

عزيزي دُنجل

أدير المفتاح في الباب الحديدي "الإضافي" الذي استحدثته جارتي خوفاً من اللصوص على خلفية حالة الانفلات الأمني التي تعيشها البلاد بعد الثورة و إسقاط النظام. أرهف السمع قبل أن أصل إلى باب شقتي خوفاً من أن يكون طليقاً فيعترض طريقي. أصعد الدرجة الأخيرة وقد تصاعدت فجأة دقات قلبي تحسباً لأي مفاجأة غير سارة. ذهبت الجارة إلى الإسكندرية بعد أن ألقت على مسامعي حزمة من رسائل الطمأنة خلاصتها: لا تخف منه... كل شيء تحت السيطرة!

الجو يزداد برودة والقفاز الأسود المصنوع من خيوط التريكو لا يهبني دفئاً، و٩٤٥ محطة تلفزيونية تزيدني إحساسا بالوحدة والفراغ. بعد منتصف الليل أسمع نباحه وقد تحول إلى صرخة يتيمة تبدأ قوية عريضة وتنتهي فجأة كدمعة خانت صاحبها فمسحها بإصبعه سريعاً قبل أن يراها الآخرون على خده. لا أعرف ماذا يأكل أو يشرب وأحاول أن أهرب من السؤال: من يعتني به الآن وقد أُحكم وثاقه حتى لا يزعج الساكن الجديد؟

جدي

ما إن أدير المفتاح وأدفع الباب برفق حتى تصافح وجهي زفرة حارة لهواء ساخن طال حبسه خلف باب شقة صغيرة، سيئة التهوية. الآن أعرف أنى عدت أدراجي بعد يوم من العمل الشاق. الرائحة المميزة للأماكن الضيقة التي لا تدخلها الشمس ولم يتم تنظيفها منذ شهور، تضفى على عودتي مزيداً من اليقين. جواربي ملقاة على الأرض، وملابسي تمردت على الدولاب وقررت أن تغير محل إقامتها.

يتعالى الرنين المزعج لهاتفي المحمول. ألقى بجسدي المنهك على الفراش دون أن أخلع حذائي. رنين الهاتف يعاود إزعاجه. أتجاهله مغمضاً عيني وأفكر في "طِشت" المياه الساخنة وتدليك باطن القدم بالملح وكيف كان جدي يتأوه فِي لذة بعد عودته من الحقل قبيل الغروب أجيراً هَدَّه التعب:

– الله يا زبيدة... يدك فيها الشفا.

فتضحك بدلال مَن تصغره بثلاثين عاماً وانتفخت بطنها بعد أن أصرت على أن يطلق "القديمة" أولاً...

رنين الموبايل يعاود العويل بإصرار أشد، فأفتح النافذة وألقى به في هدوء ثم أعود للفراش وقد تسلل الخدر اللذيذ إلى باطن قدمي...

أنا ومبارك والشعر الأبيض

الموضوع أصبح في منتهى السخافة فعلاً !

بدأ على استحياء في العشرين، وتوسع بالثلاثين، وحين أصبحت على مشارف الأربعين، كان قد احتل السالفين والجانبين بالكامل وقليلاً من المقدمة، فضلاً عن مساحة لا بأس بها من شعر الصدر. السخافة لا تمكن هنا، بل في الآتي:

– ما هذا الشعر الأبيض يا عمنا ... شخت قبل الأوان ؟

– أين أيام زمان لما كنت " براد بيت " الشلة ؟

صديق مقرب همس بأذني:

– لكي تتخلص من هذه التعليقات السخيفة، يجب أن تتعامل بواقعية مع الأمر. عليك بالصبغة ! نعم، اصبغ خصلات شعرك البيضاء مثلما فعلت أنا. لا تنتظر أن يأتي يوم تشير فيه إلى سائق ميكروباص لا يصغرك إلا بسنوات قليلة فيقول لك متعاطفاً مع شيخوختك: لا مؤاخذه يا والدي ... ليس طريقي !

صمتي شجع صديقي الذي كان يفيض من نبع تجاربه على المزيد فقال:

– عندي لك صبغة مستوردة من النوع الذي يستخدمه فخامة الرئيس نفسه.

وعلى طريقة أحفاد الفراعنة حين يبالغون في عرضهم الكريم أضاف صديقي الكلمة المصرية المأثورة وهو يغمز بعينه: غداً تدعو لى!

كان ذلك في ٢١ يناير ٢٠١١، بعدها بأسبوع بالتمام كانت قد قامت الثورة التي لم ألحق بقطارها إلا في "جمعة الغضب" حيث كنت أهتف:

- حسنى مبارك....؟

فترد مجموعة كبيرة انتظمت في مسيرة أقودها من ميدان عبد المنعم رياض إلى ميدان التحرير.

- باطل.

ـ وزوجته سوزان....؟

ـ باطل.

ـ وابنه جمال.....؟

ـ باطل.

وبنفس الحرارة والتدفق والاندماج، بنفس نشوة استعادة الحرية المسلوبة، بنفس لذة التمرد على رأس النظام بعد سنوات طويلة من الصمت، واصلت الهتاف.

ـ وصبغة شعره.....؟

فأتاني الرد حاسماً دون ذرة تساؤل أو ارتباك:

ـ باااااااطل.

الغرام القاتل

ماذا وهبتني بانكوك؟

بخلاف سكينة الرهبان البوذيين في رداءهم البرتقالي والحزن الأبدي بعيون الفيلة البيضاء المنحوتة من الجبس في مدخل الحدائق؟

لا شيء أيتها العاصمة التايلاندية العتيقة.. اللهم باستثناء فتاة أنقذها اتساع عينيها من فخ التكرار الممل لنموذج الجمال في الشرق الأقصى، فتاة تنطلق حرف Z وكأنه S. أبوسها فى الشارع فتصرخ ضاحكة وتتهمني بأنني crasy أي crazy، يعنى مساً كهربائيا أصاب ما تبقى من أسلاك دماغي ، سيادتك!

نعَّتم الغرفة ونوقد الشموع فتحذرني من أن ممارسة الغرام ما هي إلا موت مؤقت وأن علىَّ أن أتذكر أن الفكرة الأخيرة التي تراودني وأنا أتقلب على جمر الرغبة هي الأولى التي ترد على ذهني حين أُبعث في حياة أخرى: عصفوراً أو وردة أو خنزيراً....

بانكوك .. بانكوك

لن أنسى بانكوك

الفتاة رقم ٧

المحل الوحيد الذي رأيت واجهته تحمل حروفاً بالانجليزية كان heath club بلافتة حمراء ضخمة. ومثلما يسأل السائق في القاهرة السائح عما إذا كان يود زيارة الأهرامات، يسألك السائق بتايلاند ـــ وهو يبتسم ابتسامة صفراء ـــ عما إذا كنت تود المجيء إلى هذا النادي الصحي.

موظف علاقات عامة يستقبلك بابتسامة مهذبة ثم يقدم لك بنفسه مشروباً قبل أن يدعك دقائق في الصالون تتأمل بمفردك البضاعة عبر حاجز شفاف. كانت أعمارهن تتراوح ما بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين. ٥٠ فتاة يحملن أرقاماً مسلسلة وملامح هادئة، صامتة.

- أنصحك برقم ٧ يا سيدي.

قال الموظف بتفان وإخلاص يليقان بالتقاليد الأسيوية العريقة.

- لماذا ؟

أجابني وهو يرتدى قميصاً أزرق وكرافت أحمر:

- إنها صغيرة وصدرها ممتلئ ويمكنك أن تضع....

قاطعته:

- اسمع .. سأمنحك بقشيشاً جيداً إذا أجبت بوضوح عن سؤالي.

- تفضل سيدي.

- لماذا ترتدي هؤلاء الفتيات نفس الرداء البرتقالي الزاهي؟ أليس هذا هو الزى المميز لرهبانكم، فلماذا ترتديه فتاة جئتم بها من حقول الأرز البعيدة لتقوم بتدليك سائحاً غريب الأطوار مستخدمة أصابعها ونهديها...

- سيدي...

ارتبك للحظات ثم استعاد مبادرة الثقة والهدوء وهو يسألني كمن أراد أن ينهى الصفقة:

- إذن.. على من وقع اختيارك، سيدي؟

ارتشفت الجرعة الأخيرة من المشروب الكحولي القوى وأجبت:

- أنا أثق في ترشيحك ، لتكن نمرة ٧ ..

جعلتني مستشاراً

من أعشق الشعيرات الخفيفة الصفراء المنثورة كسنابل قمح على ذراعيها، لم تجد غيري كي تستشيره في أدق تفاصيل عرسها: أي ألوان يفضلها الرجل عادة؟.. ماذا تفعل بالضبط لكي تملأ عينه؟.. وهل صحيح أنها يجب أن تغفر له بعض الهفوات حتى في شهر العسل كما تقول صديقتها "منى" أم يجب أن تذبح له القطة منذ الليلة الأولى كما تقول "رشا"..؟

من تشرق الشمس كي تفتح عيناها وتغرب كي تستريح، نظرت بعيني مباشرة وقالت:

– أقسم بالله أنني أثق فيك أكثر من إخوتي المتهورين، وصديقاتي الغيورات، ولولا الملامة لأخذت رأيك في "الطقم الداخلي " على الطبيعة...

رن هاتفها فأطلت شمس صغيرة في وجهها الأبيض ثم أشارت لي بالسكوت قبل أن تهمس في دلال وهى ترد:

– حبيبي يأمر و أنا أنفّذ !

بغل من الشرق

كنت أتصور أن الإثارة التي تسبق عادة رحلة السفر الأولى خارج الحدود ستمنعني من النوم خصوصاً أن موعد الطائرة يتطلب الاستيقاظ الثالثة فجراً، لكنى كنت واهماً، التعب بلغ منى منتهاه فسقطت في النوم مثل حجر بعد نهار حافل قضيته بالدوران على أصدقائي من "أصحاب السوابق" الخارجية . الكل يريد أن يعمل معي واجباً فيلزمني بضرورة لقاءه منفرداً ليتلو علىَّ وصاياه العشر. وفى كل بيت أو مقهى لا تخرج الوصايا بمجملها عن ضرورة أن أرفع رأس العرب وأرى حريم أمريكا ما لا عين أنثوية رأته في سوق الرجولة.

- نريدك بغلاً من الشرق!

- شهداءنا في فلسطين والعراق وأفغانستان يناشدونك الانتقام.

اللقاء الوحيد الذي كان يعنيني اقتضى منى اختراق مجاهل "الصين الشعبية"... هناك فى عمق "بولاق الدكرور" من ناحية "ناهيا" حيث التقط الخيال الشعبي هذا الاسم ليطلقه على أشهر أحياء القاهرة زحاماً وتلوثاً

وفوضى، ولست أريد إعطاء انطباع كاذب بأنني كنت أتوغل بهذه الأحراش البشرية على طريقة "المثقف المتأمل" الذي يرصد نماذج أو يستكشف عوالم، فالحق الحق أقول: كنت أسير مثل ثعلب اختطفوه من الحقول وتركوه فجأة في مفترق طرق سريعة .

ولكن من أجل عيون "جو" كله يهون !

"هو كبيرنا "يوسف" الذي علمنا السحر ولا أستطيع أن أقوم بهذه الرحلة دون أن أمُر عليه، ليس لكي نأخذ البركة كما نمزح معه دائماً، وإنما بسبب إحساس دفين بالذنب يكنه معظم أفراد الشلة تجاهه. يكبرنا بعشر سنوات على الأكثر إلا أن مظهره يعطيه عشراً إضافية ونحن القادمين من الريف والنجوع تربينا على مكتبته، بل وسطونا على نصفها، وهو القاهري كان بوابتنا إلى العاصمة ودليلنا إلى أسرارها وعالمها الليلي . نبيت عنده بالأسابيع فلا يتذمر، نستلف سجائره فلا يشكو وندهش لثقافته الموسوعية، وتجاربه المذهلة ونقول ": هؤلاء هم اليساريون وإلا فلا ...

هو الذي عاش ببيروت أيام الحرب الأهلية، وترقى إلى رتبة "مقدم" في خلية عسكرية، نعجب متى ينام، فعيناه حمراوان، دائماً حمراوان، لا يحلق ذقنه، ولا يكف عن تدخين الشيشة ويحيط علاقته بالمرأة بستار كتب عليه "ممنوع الاقتراب أو التصوير". يكره الأكل كراهية العمى، وإذا ازدرد بعض لقيمات، فإنما يفعل ذلك لكي لا يكون التدخين على معدة خاوية، لا يطيق الخروج أو الاستحمام، لا يحمل للفلوس هماً، فهي تأتيه بانتظام من " البلد " بسبب قطعة أرض كبيرة ورثها عن أبيه الذي كان أحد الأعيان.

وكما هو القانون القاسي للأشياء ، كان لابد أن يأتي يوم ينطفئ فيه البريق، وتخبو جذوة الوهج، ونقرر بيننا وبين أنفسنا بلحظة "نذالة تاريخية" أن "يوسف" مرحلة وانتهت.

وإذا قمنا بأي مبادرة ودية مثل التي أفعلها الآن فمن باب عدم التمادي في النذالة والتواصل مع الرجل الذي كان يوماً ما أهم شخص في حياتنا والآن أصبحنا لا نراه إلا مرات تُعد على أصابع اليد كل عام. والغريب أنه مثلما كان صبوراً ونحن نقص عليه ارتباكاتنا العاطفية، ومتفهماً ونحن نسأله النصح والإرشاد في غرامياتنا، لم يتذمر مطلقاً، ولم يغضب أبدا ونحن ننفض من حوله بل كان يقول في نبرة تجمع بين الحنو الأبوي والأداء المسرحي: اذهبوا فأنتم الطيور.. لكم الفضاء والحرية!

السلم طويل يلتف حلزونياً بزوايا حادة مقلقة، درجاته غير سميكة لا يبدو أهلاً للثقة، ، والشقة أو "وكر الحرية" تقع فوق السطوح، ويوسف كالعادة بمنزله بين النوم واليقظة، يقطّع الفحم على رخامة المطبخ ويرصه على نار الشعلة في البوتاجاز، ويمضى متكاسلاً إلى حيث الحمام لتغيير ماء الشيشة، وفى النهاية، وبينما وهو يحتسى شاياً ثقيلاً، ويسحب أنفاساً معطرة بالنشوة يفتح الله عليه وهو يتلو علىَّ نبوءته قائلاً:

– المدينة التي ستعجبك هي D.C أنهما الحرفان الذين يختصران عبارة District of Colombia .. أنت تتصور أن دمها سيكون ثقيلاً على قلبك باعتبارها "العاصمة السياسية" لأمريكا ولكن هذه المدينة الصغيرة المفروشة

ببساط من الحدائق الخضراء و تماثيل البرونز و البنايات الصغيرة الأنيقة ستكون خلاصة ما تطلع به من رحلتك.

ويسحب يوسف نفساً طويلاً ثم يخرج عاصفة دخانية من "منخاريه" وفِيه قبل أن يتابع:

– إذا أردت نصيحتي، فعليك بسلسلة مقاهي "ستاربكس" الشهيرة، ادخلها صباحاً والشمس تفرش الشوارع الواسعة برداء من المودة واطلب قهوة مع عبوة لبن أيرلندي وشاهد الخلق وهم يسيرون على الرصيف أمامك، يمسكون الحبل بيد، ويمسكون الصحيفة باليد الأخرى ويتمشون في نشاط وحيوية.

سألته:

– أي حبل؟

قال:

– ليس شرطاً أن يكون حبلاً.. ربما تكون سلسلة.

عدت أسأل :

– أي سلسلة؟

قال: سلسلة تنتهي بطوق حول رقبة كلب من فصيلة ألمانية" لا أذكر اسمها الآن.

وضحك فجأة دون سبب ثم سعل بشدة فكشف عن فم يبدو مثل الكهف و أسنان سوداء وناب بدا وكأن منحوت بمبرد...

الجار الانجليزي

كانت سلاسل الجبال بلونها البني الداكن مؤشراً على أننا أصبحنا داخل الحزام الأوروبي. بدا ذلك واضحاً من خلال القمم المتوجة بثلوج ناصعة البياض لم تذب بعد رغم أننا كنا في يونيو . جارى بالمقعد على الطائرة كان استهلالاً إنجليزياً سيئاً، فصحيح أن سقف التوقعات حول هوية الجار لم يكن قد يرتفع عندي إلى "جِنية حمراء قادمة من بافاريا" على طريقة قصص عمنا يوسف إدريس، لكنى بالتأكيد لم أكن أنتظر أن يهديني القدر كل هذا البرود!

في الخمسين من العمر كان الرجل، يرتدى جاكت خفيفاً وكوتشي وبنطلوناً من الجينز، لكن روحه لم تكن بنفس البساطة، قمت بعدة مبادرات ودية كنوع من جس النبض، إلا أن استجابته لم تكن مشجعة إطلاقاً. أسأله عن جنسيته التي لم أكن أعلم أنها بريطانية، أو عن مكان وضع حقيبة كتف صغيرة احتفظ بها، فيجيب بإيجاز إجابة لا تمد جسراً بقدر ما تضع حواجز...

- فليكن!

هكذا همست لنفسي وأخذت أتسلى - كنوع من الانتقام السري - باستدعاء أكثر التعبيرات القوية عن البرود التي لفتت نظري، وتذكرت أنه في إحدى المخطوطات القديمة جاءت عبارة: والله إن له لبرودة أشد من برودة الرخام في شهر طوبة".

أما التعبير الأكثر حداثة فقرأته برواية مترجمة يقول صاحبها: وكان بارداً برودة لورد إنجليزي يجلس مسترخياً في حديقة منزله".

وأخذت بهذه الروح أتطلع إلى الجار في تشف وهو يقرأ بعض الصحف المتاحة مجاناً على باب الطائرة: "لوفيجارو"، "لوموند"، "ديلى تليجراف"، لكن يبدو أن "البعيد" أدرك ما يجول بخاطري وأراد أن يرد لي الصفعة حين سألته للمرة الثانية أن يسمح لي بالعبور حيث أحتاج بشدة للذهاب إلى دورة المياه بما أن سيادته يجلس على المقعد الأول وأنا في الداخل بجوار الشباك. أجاب في هدوء:

- حسناً.. ولكن ستكون هذه هي المرة الأخيرة!

وفوجئت بنفسي أقول له وبإنجليزية طليقة بلا تردد:

- هل تعرف شيئاً.. لن أذهب!

وجلست مكاني، ولم تزد دهشته عن ثوان سرعان ما عاد بعدها إلى القراءة وكأن شيئاً لم يكن..

الجبال الطائرة

لم أندهش حين شهق مسعد قائلاً:

- يخرب بيتك... بثمن التذكرة ممكن أتزوج و أدخل دنيا !

قال حسام :

- كم يعنى؟

أجابه مسعد:

- ثلاثين ألف يا معلم!

أثناء الرحلة نفسها، وعلى متن طائرة " إير فرانس " حلت بركات عين مسعد وحسام ! في البداية ترافق شيء من الهرج المحبب اللذيذ مع الاستعدادات لتقديم وجبة الإفطار، عربات ضخمة تجرها بهدوء مضيفات جميلات إيذاناً بكسر الملل بعد مرور ساعتين وأنا مصلوب في مقعد فاخر! شعرت بالبهجة وكأنني عيل استيقظ من الفجر يوم العيد، لكن فرحة ما تمت ، أخذها الغراب و طار .الوجبة لم تكن لتكفى عصفوراً وليداً ! هذه إذن هي سياسة "إير فرانس" لتحافظ على رشاقة السادة عملاءها الكرام ولو رغماً

عنهم، ويبدو أن إحاطتنا بطاقم مضيفات لهن أجساد عارضات أزياء جزء من هذه السياسة . لفتة الكرم الوحيدة تمثلت في "أوبن بوفيه" من المشروبات لا يضم فقط القهوة والشاي والعصائر، بل أيضاً الشمبانيا والنبيذ.

هممت بالقيام، ولكنى عدت وتذكرت أن بجواري جاراً إنجليزياً سخيفاً أعلنت عليه الحرب العالمية الباردة وقيامي من على مقعدي ربما يعتبره بمثابة انسحاب من المعركة. قلت: ليكن، لن أذهب، فقديماً هتف أجدادنا فى وجه جنود الاحتلال البريطاني "الجلاء التام أو الموت الزؤام" ولن أبيع القضية حتى لو كان الثمن كأس شفاف منحوت من الكريستال وعامر بالكحوليات الفرنسية الفاخرة ضمن البوفيه المتاح للجميع بمؤخرة الطائرة.

في هذه اللحظة اشتد الطنين إيذاناً بقرب لحظة هبوط الطائرة. كابتن الطائرة يهبط تدريجياً ويقلل سرعته فتصبح طبلة الأذن هدفاً لموجات متلاحقة من صفير حاد لا يريد أن ينتهي. أصوات المضيفات وهن يتحركن بخبرة من اعتاد الأمر، تأتى مثل أصداء بعيدة في حلم عابر.أحاول – دون جدوى – أن أتناسى الضغط الرهيب الذي تتصاعد حدته كلما هبطنا أكثر، أقول لنفسي هذه إذن هي بشائر مولاتي "باريس" بشحمها ولحمها، باريس على سن ورمح.

سجادة هائلة خضراء اللون نقترب منها رويداً. نهبط أكثر فإذا بالسحب التي كانت تبدو مثل رؤوس كعك مرشوش بسكر أبيض، تصبح جبالاً هائلة تقترب من الطائرة.

صدمة باريس

باريس التي نزلناها ترانزيت في رحلتنا للولايات المتحدة لا تعرف أبجدية الترحيب داخل المطار خصوصاً ساعة الظهيرة : لا برج إيفل يلهمك قصيدة تكتبها بصباح غائم ولا شوارع هي بحد ذاتها متاحف مفتوحة ، لا غابات على الأطراف تهبك تعريفاً جديداً للسعادة ، ولا محلات " تاتي " تشترى منها هدايا رائعة برخص التراب، لا متحف للجنس يعطى شارع "بيجال" خصوصيته ، ولا معهد للعالم العربي تلتقي فيه حسناء لبنانية ملولة ، لا كنيسة للقلب المقدس. ، لا جن ولا ملائكة..

فقط حرارة وملل خانق..

وجميلات تطل عبر الفتارين بابتسامة أبدية التصقت بعلب أحمر الشفاه و العطور في المحلات الزجاجية التي تحاصرني من كل الاتجاهات...

مندوبة الخارجية

لافتة كبيرة من الورق الأبيض المقوى مكتوب عليها بحروف إنجليزية سوداء بارزة: Mr. Baraka. هذا هو الخبر السعيد الذي كان بانتظاري حين غادرت نقطة التفتيش وأنا في مطار واشنطن. اللافتة تحملها سيدة في منتصف الثلاثين، بيضاء، ممتلئة قليلاً، تتابع بهدوء وتركيز عملية البحث عن شخص أجنبي لا تعرفه.

جاءت إلى هنا بتكليف من رئيسها المباشر بوزارة الخارجية لتكون في انتظار هذا الشخص الذي لا تعرف عنه سوى أنه من بلد إفريقي بعيد بالشرق الأوسط ، سترحب به حين يتعرف إليها، ستكون تلك اللافتة جواز المرور الحقيقي إلى بلاد "أنكل سام"، وسيكون التعارف دافئاً وبسيطاً خصوصاً حين تعرف أن هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها بلادها.

على عكس توقعي جاءت "مونيكا" بسيارتها الخاصة، هوندا ياباني بيضاء، علقت على هذه الملاحظة، أعنى النصف الثاني منها فقالت وهى تطلب منى وضع حزام الأمان:

- ولم لا... إن الثقة في التكنولوجيا اليابانية تقليد متوارث بعائلتنا!

لم أعرف إن كانت تمزح أم تتكلم بجدية، يبدو أنها لاحظت ذلك فقالت:

– هل يبدو كلامي غريباً، أم لعلك كنت تتوقع أن أثرثر معك طويلاً عن روعة المنتج الأمريكي بالسيارات وكيف أنني أعشق "فورد" و "كاديلاك" و"شيفروليه" باعتبار أن هذا من صميم الوطنية، وربما زدت واخترعت قصة حول أن "هوندا" جاءتني هدية فلم أرفضها! الحقيقة أن السيارات الأمريكيـة ليست بحاجة إلى مجاملة أو نفاق منى، فمصانعنا بديترويت أو كلورادو لن تحقق قفزة في مبيعاتها إذا تكلمت عنها على هذا النحو.

– حسناً، سأستغل صراحتك هذه..

قاطعتني ضاحكة ومشجعة:

– أرجوك أفعل هذا!

– هل تنحدرين من أصول يابانية؟

– واو! هذا حقيقي.. لكن كيف عرفت.. لا تقل لي أن "هوندا" هي السبب!

– لا.. بالقطع لا.. فلدينا بمصر عشرات الآلاف منها دون أن يعرف أصحابها أين تقع اليابان على الخريطة!

– ما السر إذن؟

تساءلت وعيناها تلمع بالفضول. أجبت:

- لا أعرف بالضبط.. لكنى شعرت بنبرة فخر خفية انتابتك حين ذُكر اسم اليابان؟ والحقيقة أن هذا يثير استغرابي!

(هنا فقط بدأت أنتبه إلى أن ملامح وجهها تحمل مسحة أسيوية خفيفة).

- لماذا الاستغراب؟

تساءلت كأنها توافقني على ملاحظتي. قلت:

- أعنى أنك موظفة بالخارجية وبحكم المهنة من الطبيعي أن تكوني متحفظة قليلاً وأنت تتحدثين مع زائر أجنبي عن بلد هاجمكم بضراوة قبل ستين عاماً.

- تقصد الهجوم على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر؟

- وأقصد أيضاً ما فعلته سلطات بلادك بالمواطنين اليابانيين، لم يعـــودوا مواطنين بل جواسيس وخونة إلى أن يثبت العكس، أنت تذكريـــن بالطبع عزلهم في معسكرات اعتقال وانتزاعهم بقوة السلاح من فراشـــهم الدافئ.

قالت ضاحكة:

- انتظر!.. انتظر..! ما الذي يحدث هنا ، هل تحرضني ضد بلادي ؟ هل تعـــرف اسم هذه المسرحية "انظر خلفك في غضب" أنا لن أفعل هذا أبداً، ما حدث قـد حدث، لكنك فعلاً تثير دهشتي!

اقترحت مونيكا تغيير الموضوع.

قالت:

- لندع التاريخ لأهله ولا ننكأ الجراح، وبدأت تشرح لي أين نحن بالضبط.

لازلت أذكر مونيكا .أذكر نفقاً مضيئاً ، وتلالاً معشوشبة بالأخضر الداكن. أذكر اتساعاً مدهشاً للطريق.. وحضوراً لطيفاً لسيارات أنيقة تنهبه في هدوء...

زرقاء العينين

منذ اللحظة الأولى تكشف لك هذه البلد عن سرها: أراض واسعة، ومساحات شاسعة ينعم بها شعب متدين ويهز عجائزه رؤوسهم في رضا وامتنان وهم يقولون لك: إنها نعمة لا تقدر بثمن، فعندما شاءت العناية الإلهية أن نكسب حرب الاستقلال في الرابع من يوليو منحنا الله أرضاً لا نهاية لها، ربما نعانى أحياناً بعض الشح بالوقود، ربما نبحث عن مصادر جديدة للطاقة، لكننا لا يمكن أبداً أن نشكو مساحة فالأرض الواسعة رفاهية أمريكية بامتياز. ولم تكن المطارات الدليل الوحيد على صدق هذه المقولة، فالشوارع والميادين والمولات ودور السينما تنطق هي الأخرى بتلك الحقيقة الصارخة التي تلمسها بكل شيء من حولك.

في طابور طويل انتظمنا أمام ضابط شاب، الطابور متعرج يحدد اتجاهه شريط كحلي طويل مثبت فوق قوائم معدنية، والإجراءات ــ رغم دقتها ــ سلسة وسريعة، وتفاءلت خيراً بأن يد الله لن تدخلني التجربة، تجربة

السيناريو الأسوأ التي هيأتني نفسياً له وأنا فى القاهرة مساعدة الملحق الثقافي بالسفارة بالأمريكية. قالت:

- كل الإجراءات تسير بشكل رائع، وهذا الخطاب ، وأشارت إلى مظروف أبيض أنيق ، ستسلمه لضباط الجوازات في المطار، لا تفتح الظرف مطلقاً هو فقط المخول بفتحه، سيقرأ كل التفاصيل وسيدعك تمر على الفور كما هو مخطط ، لا تقلق . وفى أسوأ الاحتمالات سيطلب منك أن تتوجه معه إلى مكتب خاص، وهناك سيلقى عليك بعض الأسئلة الروتينية حول الهدف من زيارتك، ومدة الإقامة، وطبيعة البرنامج الذي تشارك فيه، لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، ليست هناك أي إساءة متعمدة، إنه مجرد إجراء أمنى روتيني، عليك فقط أن تتحلى بالصبر والهدوء وأن تبدى تفهما للموقف، فهذا الضابط لا يتعمد مضايقتك إطلاقاً، هو فقط يريد أن يؤدى واجبه على أحسن وجه ممكن من وجهة نظره..

وسكتت فجأة "مارجريت" ؟

وقتها كنت قد أفقت من شرودي على معجزة الأزرق في عينيها، درجة عميقة وداكنة لم أر لها مثيلاً من هذا اللون، كانت ترتدي "تاييوراً" رمادياً وصندلاً بكعب عال، وكنت أحاول جاهداً ألا أستغرق أكثر في ثنايا زرقة العيون والبياض الثلجي الناصع للبشرة الذي يكشف عن عروق فى العنق، متناهية الرقة والصغر.

تذكرت كيف فى نفس المكتب بالسفارة، قبل عام كامل كانت مارجريت قد أجرت معي نقاشاً مطولاً وفى يدها قلم رصاص تدون به ملاحظات سريعة سألتني: لماذا تعتقد أنك ستستفيد إذا شاركت في برنامج الزائر الدولي الذي تنظمه الخارجية الأمريكية؟ أجبت على الفور: بالنسبة لي على الأقل، أمريكا صداع أتداوى منه بنسكافيه سادة كل صباح دون إضافة أي سكر.

اتسعت عيناها ورددت ورائي وهى مندهشة:

- صداع!

واصلت أنا بجدية:

- صدقيني نوع النسكافيه الذي أطلبه دوماً جيد للغاية، وطريقة التحضير سليمة ومضمونة، لكن الصداع لازال مستمراً!

أغمضت عينيها وتراجعت برأسها قليلاً وهى تفرد أصابعها الخمسة في وجهي وقالت بهدوء:

- انتظر! هل يمكن أن تتكلم بوضوح من فضلك، قد تكون كاتباً مميزاً، ولكنى قد لا أكون معتادة على هذا المستوى من النقاش.

قلت:

- أوكيه، رغم آلاف الأميال التي تفصلنا هنا بمصر عنها، إلا أن السيدة أمريكا تسللت إلى هواءنا، وذابت في مياه النيل، نصطحبها معاً إلى غرف

النوم، ونهيئ لها وسادة مريحة لتستند عليها برأسها، أمريكا لم تعد دولة عظمى بل سيف بتار يقشر به البعض التفاح، أما البعض الآخر فيستخدمه لشق صدور خصومه ومعارضيه واستخراج دليل العمالة والخيانة. وما أريده بكل بساطة هو أن أرى هذا البلد وجهاً لوجه، أن أعرف عن قرب ، وليس بالسمع ، أي أقراط تضعها بأذنها، أي عطر تفضل، وما هو لون ملابسها في الصيف..

ضحكت مارجريت في رقة وهزت رأسها وهى تقول كمن يهمس لنفسه:

- يا للكُتاب!

أنا و هي والدولة الإسلامية

عيناها واسعتان بلا مبرر وسوداوان على نحو فاتن ومحبط!

عيناها ليل متوحش.

لا أنكر أن "أسلحتها" الأخرى تعمل بكفاءة مدهشة، وسأعرف فيما بعد كيف هربت بمعجزة من حصار الهامبرجر والبطاطس المقلية حتى تحافظ على رشاقتها وتنجو من لعنة "جذوع الأشجار" التي تطارد أجساد النساء هنا، لكن تظل عيناها أخطر ما في الموضوع. بريقهما يهدد طمأنينتك، يهاجم وداعتك بشراسة. مالي أنا وهذه الرموش الطويلة التي تبدو وكأنها خلقت خصيصاً لاصطياد المشاعر الغضة؟ مالي وهذا الشعر الغجري المسافر حتى آخر ورقة سوليفان تخبئ فيها قلبك الصغير الأخضر؟

وقالت ضحكتها: أين ستهرب؟ وقال قوامها الذي بدا رمحاً طويلاً يحارب به عبد حبشي في جزيرة العرب: سلمَّ تسلم. وقلت لنفسي: لماذا نضحك على أنفسنا، أليس الرجل منا عينه بالفعل فارغة؟ إن عشرات النساء بمقدورهن

أن يلفتن بدرجة أو بأخرى انتباهنا يومياً، لكنها مرة واحدة بالعمر، تلك التي نقابل فيها أنثى نتمنى بحرقة أن تكون لنا لليلة أو لساعة أو للحظات، ليس اشتهاءً ضارياً أو سقوطاً من النظرة الأولى فى بحر العسل، بل امتثالاً لسطوة يقين معذِب يخبرنا أنه إذا لم يحدث هذا الآن، فلن تروينا أنوثة الدنيا بعد ذلك!

هل كانت "جيسكا" هي تلك المرأة الموعودة؟ ملامحها تحمل من الشرق أكثر مما تحمل من الغرب، توقعت أن تكون من أصل أوروبي متوسطي، ولكنها أكدت بفخر أنها أمريكية "أباً عن جد" وإن كانت أشارت إلى أنني ليس أول من يعتقد ذلك، هذا بالضبط ما يحبطني، فعقدة النقص الكامنة فينا تجاه الأجنبيات ، الأمريكيات منهن خصوصاً ، لا تستيقظ إلا بحضرة خصلات الشعر الذهبي والعيون الزرق إلى آخر المواصفات التقليدية لكتالوج الأنوثة الغربي، أما أن تبدو "جيسكا" جارية أوروبية خارجة لتوها من كتاب "ألف ليلة" فتلك قصة أخرى.

جسدها بدا متخلصاً من التوتر في حضور أحد الغرباء، وهو يتمايل خفيفاً بإيقاع لا يخلو من بعض الاستعراض، وقالت البيضاء الجميلة شيئاً عن عملها السابق " جرسونة بار" وعن حلمها بالذهاب إلى روما لدراسة الموضة وكيف أصبح الأمر هاجساً ملحاً بعد انفصالها عن زوجها، وبطبيعة الحال رنت العبارة الأخيرة – التي حرصت هي أن تأتى بشكل عابر – في أذني مثل جرس إنذار رائع. كانت تحدق بعيني بتركيز غريب قبل أن يتحول

فمها العذب الصغير فجأة إلى مدفع رشاش انطلق في وجهي مرة واحدة بأسئلة كثيرة لا تنتهي:

- هل حقاً لديكم في مصر سيارات؟

- هل الرجل عندكم يعيش مع أربع زوجات بخيمة واحدة وسط الصحراء؟

- هل يعترف قرآنكم بأن المسيح هو المخلص؟

- أين كنت و سياف تنظيم "الدولة الإسلامية" يطيح برقبة الصحفي الأمريكي أمام الكاميرا ، و ماذا كان شعورك الحقيقي حين انفصلت رأسه عن جسده ؟

- هل تشعر في داخلك بالحزن على هزيمة التنظيم في العراق و سوريا ؟

كان شعري يحمل ما تيسر من غبار، هائش يشبه الشعر الحديث الذي يكتبه أصدقائي في القاهرة، ذقني نابتة، وكان قد هدني التجوال في أسواق "نيو مكسيكو" ومللت التعرف على منتجات بقايا الهنود الحمر أو "الأمريكيين الأصليين" حسب اسم التدليل الخاص بهم هنا. تسللت خلسة من زملاء الوفد عائداً إلى الفندق وأنا أحلم بحمام ساخن، أتوق للفراش ونحن بمنتصف النهار لا نزال. تهت فدخلت أول ما صادفني، محل ملابس رجالي يعرض بضاعة تذكرك ب "وكالة البلح" ، قلعة الملابس المستعملة فى مصر. سألت البائعة التي كانت ترتدي رغم الحر قميصاً بكم و " جوب " طويلة

فدلتني بالتفصيل، ولكن الموقف لم ينته، فبينما أنا أستدير مغادراً فاجأتني بسؤالها:

- معذرة، ولكن هل أنت هندي؟

وتذكرت أنني لو كنت في أرض الوطن لكان من حقي أن أعتبر الأمر إهانة، فالهند بلد ديمقراطي ونووي، على العين والرأس، ولكن الواحد منا إذا أحس بأن الآخر يستغفله سأله مستنكراً:هل تظنني هندي؟

قلت بهدوء:

- أنت تثيرين موضوعات مهمة لكنني الآن متعب، ما رأيك لو التقينا مساءً، أنا لا أعض، والفندق لا يبعد سوى دقائق، وقبل أن ترد، سارعت وأخرجت خطاباً يحمل مثله كل زميل بالوفد ونحرص عليه مثل تعويذة دبلوماسية.. أعطيتها الخطاب الذي يحمل شعار النسر الفارد جناحيه متوعداً فرائسه، لم تندهش أو تتساءل عن ماهية هذه الورقة ومضت تقرأ بالانجليزية.

إلى من يهمه الأمر:

تؤكد وزارة الخارجية أن السيد/ ..... موجود داخل الولايات المتحدة للمشاركة ببرنامج الزائر الدولي الذي يستمر في الفترة من/ ..... إلى/ ..... ومع تفهما الكامل ومساندتنا لكافة الإجراءات الأمنية الاستثنائية

التي تتخذها حكومتنا بعد الهجوم الإرهابي في ١١ سبتمبر، إلا أننا مع ذلك نتوقع أن يعامل السيد/ ..... المعاملة التي تليق بشخص يحل ضيفاً على وزارة الخارجية.

حاجباها، العريضان كما أفضل دوماً، ارتفعا دهشة. قالت :

- أنت شخص مهم إذن!

لم أعلق، فضلت أن أكون جاداً للغاية ولاحقتها سريعاً بالباسبور وأنا أشير إلى صورتي واسمي حتى تتأكد أنني الشخص المذكور أعلاه. لم تبد مهتمة بهذا التأكيد.

قالت:

- حسناً.. ولكن المشكلة أنني لدى خطط أخرى هذه الليلة.

- أي خطط؟

- سأخرج مع أصدقائي حسب اتفاقي المسبق معهم.

- لكن هذا ليس عدلاً، فهذه هي ليلتي الأخيرة في نيو مكسيكو وغداً سأطير إلى لوس أنجلس، أما أصدقائك فمُتاحون كل يوم.

كان ما ذكرته جقيقاً.

وقالت عيناي: من فضلك قولي نعم، فقط قولي نعم!

ظلت تحدق طويلاً كأنها تزن الموقف بأكمله قبل أن تهمس:

- ولكن الحياة ليست عادلة، أليس كذلك؟

وابتسمت أكثر ابتسامة محيرة رأيتها بحياتي.أعطيتها "الكارت" الذي يحمل عنوان الفندق وأرقام الهواتف. قلت:

- سأنتظرك.

اتسعت ابتسامتها، ومضيت أنا لا أعرف ما يأتي به الليل...

ماما .. لا مؤاخذة

يا نوسة!

يا نوسة!

يا نوسة!

كان يصنع من كفيه بوقاً ويصرخ باسم أم زميله وقد قرر الانتقام، صرخاته تشق سكون الشارع الجانبي الهادئ المتفرع من شارع الهرم عند "كازينو الليل". الولد المجروح في كرامته بعد وشى زميله باسم والدته وصارت الشِلة كلها تعرف أن اسمها "عزيزة". من الليلة سيصبح اسمه "أحمد عزيزة". إذن ليس أقل من أن يعرف أعضاء الشِلة الذين تجمعوا ليلة الجمعة على الناصية أن زميله منصور الشهير بـ "أورتيجا" تحمل أمه اسم "نوسة" لينادِيه صباح الأحد أثناء الطابور كل من هب ودب بـ "أورتيجا نوسة" فالسن بالسن والعين بالعين والبادئ نهار أمه أسود من قرن الخروب.

كنت أحمل كيساً ضخماً وأنا بطريقي للبيت من السوبر ماركت. الحقيبة القماشية امتلأت عن آخرها بالأصناف المفضلة لمن يعيش "سنجل":

زجاجات المياه المعدنية والنسكافيه والبن وما تيسر من أجبان. صارت الحقيبة عبئاً ثقيلاً علىّ ، فوضعته بحرص على الرصيف ووقفت لأُريح أصابعي وأنا أُردد في نفسي:

– صدق من قال التاريخ يُعيد نفسه ولا جديد تحت القمر.

قبل عشرين عاماً بالضبط كنا عيالاً بقرية بعيدة سقطت سهواً من خارطة ريف الدلتا. لا تنشط عزيمتنا إلا حين نُمارس فنون التجسس لمعرفة أسماء أمهات بعضنا البعض، ونهدد صاحب من أوقعه حظه العاثر في قبضة من لا يخاف الله ولا يستر على "ولايا" المسلمين ، إما أن نُذيع الخبر فيُجلل صاحبه العار أو نبتزه ليشترى سكوتنا بسندوتشات تعبت أُمه بتجهيزها له.

تُرى ما الذي يجعل اسم أمهاتنا عاراً إلى هذا الحد؟ ما الشيء المُخجل إلى هذه الدرجة في أن أعرف أن ست الحبايب إسمها: صابرين أو فاطمة أو حتى بهانة؟

الآن أقف بالشارع الجانبي لأتلقى صفعات على وجهي من ريح باردة وأنا أتساءل، أما وقتها فقد نجحت جهودي الحثيثة في إخفاء حقيقة أن أمي اسمها "دام العز" ، هذا الاسم غير المسبوق الذي أطلقه جدي لأول وآخر مرة فى تاريخ السجل المدني حين فقد نصف ثروته من الأراضي والمواشي وحين جاءته هذه المولودة تفاءل بها خيراً في استعادة "العز" المفقود لعله حين يعود و"يدوم" هذه المرة..

من كان سيصغى من أقراني لهذه القصة؟ إنهم لو عرفوا أن اسمها "عزة" لانكشف سرى، فما بالك لو عرفوا أنه مجرد اسم شهرة أفلح مؤقتاً في التغطية على غرابة الاسم الأصلي الذي يراه كثيرون دعوة صريحة للاستهزاء والسخرية...

استعادت أصابعي شيئاً من راحتها المفقودة، فعدت أحمل الحقيبة الممتلئة وأنا أفكر: لماذا مرت شهور وأنا بالقاهرة لم أزر أمي ، كيف مرت أسابيع دون أن أرفع سماعة الهاتف لتتشرب روحي نبرات صوتها الحبيب؟

الراقصة

إلى جدي، طيب الله ثراه وألان الطوب تحت رأسه بالقبر ، يعود الفضل في حنيني المتقد إلى قصة غرام مستحيلة مع سيدة من وراء البحار تقول للقمر: قم وأنا أقعد مكانك، لكن ليس جمالها هو ما يذهب بعقلي، وإنما الحزن الآسر الذي يسحبني خلفه كالنداهة فأهج وراءها عبر المطارات والفنادق وأطارد عطرها في الممرات الطويلة المفروشة بالسجاد الأحمر و همسات الأحلام . عبر طرق غير مشروعة أحتفظ بتفاصيلها لنفسي ، على الأقل حاليا ، عرفت أن الحاج حسين وقع قبل نصف معوض بغرام غازية من غوازي الغجر، فهج وراءها في العزب والكفور ، وطاردها بالأفراح وليالي الطهور الملاح. أولاد الحلال تدخلوا فقط حين ترك بيته "يضرب يقلب" وعياله على فيض الكريم وكانت وجهة نظرهم أن الراجل منا يعمل ما بدا له ، بشرط ألا يخرب بيته ، و صحيح أن البنت مثل طبق القشدة المضروب بمعلقتين عسل نحل جبلي، لكنها راحت أم جاءت تظل بالنهاية راقصة ... هل تعرف معنى راقصة ؟

- أعرف بالثلاثة !

أقر أنا حسين حسن محفوظ وأعترف وأحلف على الخاتمة الشريفة أنني أعرف تماماً معنى أن تكون هذه المهرة الصهباء غجرية: أن الشعر جدائل من الضوء المشرب بالحمرة، والعينان بئران عميقان موصولان بتيار دافق من الأحزان الجوفية ، أن الصدر طبق من الجيلي الأبيض تهزه دفقة ريح متناهية الصغر، والخصر النحيل نخلة عفية نبتت بمفردها بالبراري، وما حدث بيننا لم يمنحني فقط "كلمة السر" عند الحور العين، وإنما وهبني كذلك اللعنة الأبدية لملك كريم فسق عن أمر ربه.

في المرة الأولى، لم أتمالك نفسي وانهرت سريعاً حين فاجأتني ورأيتها تخلع فستانها الأحمر المطرز بالترتر الأسود اللامع. لم يستوقفها الأمر، وبإصبعها الأشهى من الشهد مسحت القطرات البيضاء المتناثرة قبل أن تخرج علبة الدخان المعدنية وتلف التبغ في ورق البفـرة وتضع السيجارة بفمي ثم تستلقي بجانبي وأنا ممدد على ظهري. كنا بعيدين عن العمار حيث اتفقت مع صديق لي يعمل خفيراً خصوصياً لأستعير منه "الخُص" الذي يستريح فيه أثناء وردية حراسته لمخازن الغلال التابعة لعائلة أبو حاشي . كان شعاع من ضوء القمر يتسرب من بين عيدان البوص ليتكسر على خجولا ، أما حنان الدنيا فتجمع بشفتيها وهى تقول:

- من أين جئتني يا سيد الناس؟

تمنيت في هذه اللحظة أن يسخطني الله شفاهاً لا تعرف شيئاً سوى الذوبان تقبيلاً. والحق أنى ذبت بالشفتين لكنى صعدت بعدها تلالا فقد كانت محبوبتي طويلة وعفية، ونزلت سهولاً فقد كانت رشيقة ومستديرة. تذوقت عناقيد العنب، فقد كانت بستاناً كامل الأوصاف وغصت عميقاً بالأدغال المتكاثفة حول نبع الحياة، فقد كانت سر الله في نسائه.

ما لم يقله جدي: كان دمه الحامي يغلى وأعصابه المرهفة تحترق كلما اقترب أحد منها – وما أكثر من كانوا يقتربون – باعتبارها طبق البقلاوة المرغوب. وكان العاشق الغيور مضطراً بحكم الظروف أن يبتلع فورانه ويكفى على الخبر ماجورا فهو الزوج أبو العيال وهى الراقصة التي لا تحل له. بمرور الوقت لم يعد يحتمل. كان أصحابه يضربون كفاً بكف وهو يبكى أمامهم مثل طفل صغير وتسح دموع حيرته ساخنة، وما أصعب وأغلى دموع الرجال بقريتنا ، لكن الأسوأ لم يكن قد جاء بعد. قرر أن يطلب يدها بعد أن هدته ليالي التفكير الطويلة إلى أن زواجه منها سراً لكن على سنة الله ورسوله هو الحل. شرح لأصحابه كيف أن سيبيع البقرتين ويستغنى عن الحمار ويستلف قرشين ويعمل لها بيتاً على قد الحال ويرحمها من الشقاء والبهدلة في بلاد تحطها وبلاد تشيلها. لم تفلح محاولات الصحاب بإثنائه عن هذا الجنون الرسمي، وإن كان أحدهم جاهر بإعجابه:

– قيس و ليلى ، علىَّ الطلاق حسين أعظم منك يا قيس و إصبع قدمه برقبتك يا روميو ، لكنه الحظ ..

– يا عم أقول لك دماغه فوّت و سيرته ستصبح لبانا في فم القرية و أنت تقول لي روميو وقيس !

– يا أجهل من دابة، هؤلاء أناس عرفوا العشق وقلوبهم احترقت ودخلوا التاريخ. حسين تفوق عليهم لكن المؤرخين لن يتطرقوا لحظة إلى سيرته طالما هناك أشخاص على شاكلتك ".

ظل جدي يبحث عن معشوقته التي تحولت فجأة إلى فص ملح وذاب. الفأر لعب في عبه لأنها في المرة الأخيرة كانت "متغيرة شوية ". وحين قال بعد انفجارهما معاً:

– لا أقدر أعيش يوما بعد الآن من غيرك .

ردت عليه بنبرة باردة لا تتفق مع حرارة اللحظة :

– هذا ما كنت أخاف منه !

عرف أنها اتفقت على إحياء ليلة كبيرة للابن البكري لعمدة مقتدر من ناحية المنصورة. شد معوض الرحال وهناك عرف أن العمدة خصص لجميع الآلاتية والمداحين والراقصات "مندرة"، أو جناح بلغة هذا الزمان، لإقامتهم . تدبر العاشق أمره وعرف كيف يجد له مأوى حيث كان العرس لا يزال أمامه ثلاثة أيام بلياليهم.

كانت عجلة الاستعدادات قد دارت: ذبائح وخبيز وشيف خصوصى جئ به من العاصمة، والأهم أن معوض قادته قدماه إلى "غرزة" لها موقع

استراتيجي يستطيع أن يطل منها على الداخل والخارج من مقر إقامة المحبوب. كان الكوخ سابقا عصره، بل لعلها الأولى بالدلتا التي يجتمع فيها في مكان واحد الحشيش والبيرة. لم يكن يسكر سريعاً أو يصبح "مسطولاً" على الفور، باستثناء مرة يتيمة لم يستطع كبح هيجان أشواقه وحط همه في الدخان الأزرق والماء المر الذي وقع فى غرامه من أول رشفة جرعها زمان أيام الجيش حين جاء موقع خدمته بمعسكر "الهايكستب".

وما بين خشونة عالم اليقظة و حريرية عالم الأحلام، تجلى فجأة الطيف المعشوق أمام عينيه، فانتبه جدي تماما. كانت هي بالفعل. على تقاطيع وجهها الجميل، ينسدل ما يشبه الخمار الأسود وتتسلل بالظلام. انسل وراءها بخفة ورشاقة الثعالب وقلبه لا يحدثه خيراً لا سيما حين تجاوزت البيوت إلى حيث كوخ بعيد يقف على حراسته خفير اصطحبها إلى الداخل ثم خرج بمفرده على الفور.

– هات العواقب سليمة يا رب !

كان يضحك على نفسه، فكيف تأتى العواقب سليمة وقلوب العاشقين أصدق من مقياس ريختر. والخفير العملاق لم يأخذ في يده ثوان حتى تكوم أرضاً على إثر خبطة تلقاها بحجر جيري على مؤخرة رأسه. والابن الأصغر للعمدة كان راكباً والملاك مركوباً والابن الأصغر خرجت أمعاؤه بضربة واحدة من مطواة "قرن غزال" استعاد فيها العاشق المخدوع مهارته في استخدام "السونكى" وهو جندي مجند يسدد النصل الحاد عميقاً ثم يلويه

بشدة ليكون الجرح مميتاً . مجاملةً للعمدة، استجاب البيه المأمور لفكرة لم الموضوع. كانت الجثتان عاريتين تماماً وقيدت الجريمة ضد مجهول ظل ينام بالكوخ بمفرده عدة أيام. لا يأكل ولا يشرب ويرتجف بدنه من حمى غريبة جعلته يرى الغازية مكان الفتاة اللعوب التي كانت بصحبة الطيار الإسرائيلي وهو يطارد فلول المنسحبين من سيناء. الله الذي جعل كل شيء له أول له آخر، كتب لجدي عمراً جديداً. كان أول ما فعله أن تزوج من جدتي سميرة التي تحول اسمها إلى "سميرة" بحجة أنه التدليل و الحب . أما السبب الحقيقي الذي لا يعلمه سوى الحفيد الفضائحي الذي يتحدث إليكم الآن، فهو أن سمر هو اسم من شغفته ذات يوم حباً . وكلما أخرج صورتها من محفظته البنية الضخمة وقارن بينها وبين سعاد المستلقية بجانبه على الفراش، همس لنفسه "فولة وانقسمت نصفين" . وكان معه كل الحق...

عن المؤلف :

- محمد أحمد بركة.
- مواليد دمياط ، مصر.
- دبلومة خاصة في الأدب الإنجليزي ، جامعة عين شمس.
- كاتب صحفي بمؤسسة الأهرام صدر له :
- كوميديا الانسجام " مجموعة قصصية "
- ٣ مخبرين وعاشق " مجموعة قصصية "
- الفضيحة الإيطالية " رواية "
- عشيقات الطفولة " رواية "
- الزائر " رواية "
- أشباح بروكسل " رواية "

للتواصل مع المؤلف

Mr.barakawi@gmail.com

Facebook: Mohamed Baraka